الفصل الثانى

الوجود

بين التصور الفلسفى وآفاق الرؤية الأدبية التأملية

تمهيد :

الوجود هو اللغز المحير إلى الآن .. يحيطه الغموض من كل جانب ، وتلاحقه التساؤلات وهو فى هروب دائم .. يتجاهلنا ونجهله ، ولم تزل الحيرة تبرق فى تجارب العلماء ، وتموج فى عقول الفلاسفة وتنمو فى وجدان الأدباء وتطغى على قلوبهم ، وتفيض عليهم بخوارق الإلهام ، والكل مازال يتساءل .

ماحقيقة الوجود ؟ وكيف بدأ ؟ وكيف جئنا ؟ وإلى أين نمضى ؟ وماذا بعد ؟ وكل فلسفة لها مقدماتها ونتائجها .

وفى نهاية المسافة التى يقطعها الفكر علي مر الزمن يقف العقل الإنسانى حائرا أمام حقائق الوجود المبهمة وروعته الموحية ، وأسراره الناطقة .

وتشعبت آراء الفلاسفة حول أصل العالم . وإلى جانبها وقفت الآثار الأدبية القديمة .. فمذهب طاليس الفلسفى يرى أن أصل العالم الماء . وهير قليطس يرى أن أصل العالم النار فهى المبدأ الأول للوجود . ويريد بها نارا إلهية لطيفة جدا ، نسمة حارة عاقلة أزلية أبدية تملأ العالم ويرى انكز منيس أن أصل العالم هو الهواء ، وأن المتناهى هو المبدأ الأول للوجود . وتتولد منه الموجودات عن طريق التخلخل والتكاثف فاذا تخلخل الهواء صار إلى نار منها تولدت كل الموجودات النارية كالكواكب والنجوم مثلا واذا تكاثف نشأت عنه الرياح والعواصف والسحب ثم الأمطار ثم تتكاثف الأمطار فينتج عنها الأتربة والصخور.

وهكذا يسير الخلق والتكوين من هذا الأصل " الهواء " فى اتجاهين عكسيين من أدنى إلى أعلى ، أو من الكثافة إلى التخلخل وبالعكس .

والفيثاغوريون يقولون : إن أصل العالم هو العدد لأنه أشبه بعالم الأعداد منه بعالم الماء أو النار أو الهواء . وأن مبادىء الأعداد هى عناصر الموجودات عندهم لأن الموجودات أعداد . والعالم على هذا مركب من عدد ونغم .

والفلاسفة الذريون ومن أشهرهم : ديمقرايطس: يرون أن أصل العالم هو الذرة ويفسرون الكون والفساد فى هذا الوجود علي هذا الأساس فتكون الأشياء ليس إلا نتيجة اقتران المجموعة أو تلك الذرات .

وانكسمندر : في مذهبه الفلسفى يرفض رأى طاليس فى أن أصل العالم الماء ويقول :إن الماء استحالة اليابس بالحرارة إلى مائع. وإذا فالجامد سابق على الماء . فليس الماء مبدءا أولا للكون والماء معين ومحدود ولا يمكن أن يكون المبدأ الأول معينا أو محدودا وإلا لما تولدت منه الأشياء المتميزة .

والمدرسة الأيلية وفيلسوفهم " بارميندس " : يرون أن أصل الوجود هو الوجود نفسه فليس فى الكون كله إلا هذه الحقيقة وهي حقيقة الوجود وإذا كان لابد من أن يتصف بشىء فلا يمكن أن يتصف إلا بأنه موجود ، ولم يقتصر البحث فى أصل الوجود على الفلاسفة بل نرى .. فى أول القصيدة البابلية المسماه " قصيدة الخلق" .

فى البدء قبل أن تسمى السماء وقبل أن يعرف للأرض اسم كان المحيط وكان البحر وفى إحدى الأساطير المصرية جاء :

" فى البدء كان المحيط المظلم أو الماء الأول . حيث كان " أتون " الإله الأول صانع الآلهة والبشر والأشياء .وجاء فى التوراة : " فى البدء خلق الله السموات والأرض ، وكانت الأرض خاوية خالية وعلى وجه القمر ظلام ، وروح الله يرف على وجه السماء " .

وفى القرآن الكريم آيات متعددة تشير إلى الخلق . ففى سورة هود يقول الله سبحانه وهوالذى خلق السماوات والأرض فى ستة أيام وكان عرشه على الماء ليبلوكم أيكم أحسن عملا .

وفى سورة الحديد يقول الله وهو أصدق القائلين " هو الأول والآخر والظاهروالباطن وهو بكل شىء عليم ." هو الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام ثم استوى على العرض ، يعلم مايلج فى الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء ومايعرج فيها وهو معكم أين ماكنتم والله بما تعلمون بصير " .

* *

– وأدباء المهجر لم يُعْنَوا بالبحث الفلسفى قدر ماعنوا بالتأمل فى مشاهد الوجود ..

فهم لم يبحثوا فى أصل الوجود مثل الفلاسفة اليونانيين فى مراحل تفكيرهم الأولى وانما كانت لهم صلة بفلسفة أفلاطون الذى كان يرى أن العالم عالمان .

عالم الحس وهذا هو العالم المشاهد وهو دائم التغيير عسير الإدراك ليس جديراً بأن يسمى موجودا بل هو شبيه بالعالم لأنه ظل وخيال للموجود الحقيقى .

والعالم الحقيقى الثانى " عالم المجردات " وفيه أصول ما فى ذلك العالم الحسى وبين هذين العالمين يوجد العقل الإنسانى تتحقق فيه معرفة حالات من حالات تلك المعارف الكونية .

ويفسر أفلاطون الكون على أساس فكرته فى المُثُل ومثنوية العالم ، وهو يقرر وجود مادة فى المبدأ مبهمة غير معينة ، ولا يعرف عنها غير صلاحيتها لتقبل الصور .

– وأدباء المهجر بهروا بما حولهم وتأملوا فى كل شىء وحاولوا كشف الأسرار العميقة وتحملوا ضنى الترحال ، وضحوا بما يملكون إلا ثروتهم الروحية ووجدانهم الصافى العميق .

– وحين أتعرض لدراسة الوجود عند أدباء المهجر بصفته مظهرا من مظاهر التأمل سأعتمد على دراسة النصوص وتأملها ثم سيرة الشاعر وظروف حياته ثم بعد ذلك استنتج النظرة التى ارتبطت بالأديب . وقد تكون إبداعية ، وقد تكون تأثرية بمعنى أنه قلد غيره أو تأثر به .

وهذا المظهر من مظاهر التأمل يرتبط بالمظهر السابق ارتباطا عضويا . فالله خالق الوجود ، والوجود هوالحقيقة المتجسدة التى تعلن عن وجود الإله . إلا أن التأمل فى الفصل السابق ينفرد بميزة التخصص حيث يدور حول فهم سر الخالق . والوقوف على معالم العقيدة الصحيحة .

أما النظر إلى الوجود فهى نظرة شمولية بما يحوى هذا الوجود من مشاهد وملابسات وحقائق وأوهام ..... و.....

وقد تأمل المهجريون وجودهم الإنسانى وربطوا بينه وبين الطبيعة وما وراءها وآمنوا بالروح . واقترانها بالجسد . أو بقائها بعده . واعتقدوا أن الوجود شر كله أو خير كله ومنهم من آمن بثنائية الوجود . ووحدته. ومنهم من تمرد عليه ورفضه ومنهم من احتار فى تفسير ظواهره .

وبعد استقراء معظم نتاجهم وتأمله وجدت أن تأمل الوجود عندهم يدور حول الظواهر الآتية :

١ - وحدة الوجود :

وهذا التصور للوجود هو لب عقيدة نعيمه وجبران وبؤرة موقفهما من الوجود وقد قلدهما من اعتقد بهذا من باقى المهجريين مثل أبى ماضى وشكر الله الجر ونعمه قازان .

ومن الإيمان بهذه الدعوة تتفرع سائر آراء نعيمه وفلسفته الإنسانية والالهيَّة والطبيعة فما دام الوجود كله غير منفصل فليس هناك إله وإنسان فالله هو نحن ونحن الله لأننا فيه الجسد وهو فينا الروح ، فحين نعبده إنما نعبد خير ما فينا وأبقاه .

وقد جهر جبران بإيمانه المطلق بوحدة الوجود فهو دائما " يرى صورته فى الكل ويسمع صوته فى كل الأصوات " (١)

وهذه النظرية، تأثر بها أبو ماضى فى أبيات عابرة من بعض قصائده ولكنه لم يتخذها مذهبا فكريا كما اتخذها جبران ونعيمه (٢)

ولهذه الفلسفة جذورها الممتدة فى الفلسفات الشرقية القديمة واتصلت ببعض جذور الفلسفة الإسلامية ومن قبل تشربتها العقيدة المسيحية .

وتمتزج بهذه القضية قضية الاتحاد بالله فهما لا ينفصلان وأثارت فلسفة الاتحاد جدلا كثيرا . وليس المقام هنا لتقويم الآراء وانما لبيان الأصول التى كانت رصيدا لنعيمه وأقرانه فى اعتناق هذه الفلسفة .

---

(١) جبران : رمل وزبد .

(٢) عيسى الناعورى : أدب المهجر ص ٣٨٠ .

وحال الاتحاد هى غاية لطريق بسيطة تتحرر بها الروح شيئا فشيئا من كل ما هو غير ربانى وهى تختلف عن " النرفانا " فالنرفانا تغير للشخصية لا غير ، وأما الفناء فهو تلاشى الصوفى عن وجوده الحسى .

ويستلزم ذلك الفناء " البقاء " أو الاتحاد بالحياة الربانية "(١)

ونشأت هذه العقيدة فى الدين المسيحى بوحى من قصة عيسى كما يتصوره المسيحيون ونشأت فى الدين الإسلامى بوحى من قصة خلق آدم كما صورها القرآن .

والمسيحيون يعتقدون أن الله خلق آدم على صورته ، ثم أبرز من ذاته تلك الصورة من حبه الخالد ، وحتى يرى نفسه كمن ينظر فى مرآة . ومن هنا أمر الملائكة بالسجود لآدم الذى تجسد فيه كما تجسد فى عيسى .

واستند القائلون بهذه النظرية وهى التجسيد أى أن الله تجسد فى آدم وهم من المتصوفة المسلمين إلى رواية الأمام أحمد فى مسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه قال :

" قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " إن الله خلق آدم فى صورته وطوله ستون ذراعا ثم قال : اذهب فسلم على أولئك النفر – وهم من الملائكة جلوس فاستمع ما يحيونك ، فإنها تحيتك وتحية ذريتك ... الخ...

ويقول الحلاج :

سبحـــان مـــن أظهـــرنـا سوتـــه ... سِـــرّ سنا لاهوتـــه الثاقـــب
ثـــم بـــدا لخلقـــه ظاهـــرا ... فـــى صـــورة الآكـــل والشـــارب

وإذا كان " ناسوت الله " يشمل طبيعة الإنسان ، الروحى منها والجسدى فإن " لاهوته " لايستطيع الاتحاد بهذه الطبيعة إلا عن طريق التجسد ، أو كما يقول الأستاذ " ماسينيون " عن طريق حلول الروح القدس التى تتخذ مكانها حين تحل الروح الجسد "

---

(١) أ ، رنيكلسون : الصوفية فى الإسلام .

وهذا المذهب في" التأله الشخصى على الشكل الخاص الذى طبعه به الحلاج حين قال :

مزجت روحك في روحي كما ... تمزج الخمرة بالماء الزلال
فإذا مسك شيء مسني ... فاذا أنت أنا في كل حال

بينه وبين المذهب المسيحى الأساسى نسب واضح (١)

فمعتقد نعيمه فى ألوهية الإنسان انحدر اليه من أصول العقيدة المسيحية وكان لهذا المعتقد ارتباط وثيق بقضية وحدة الوجود التى أينعت فى حقول التصوف الإسلامى .

– وجبران يعتقد أنه بؤرة هذا الوجود وأن الوجود يتحرك فيه ومن خلاله وهو الدائرة التى تحوى داخلها كل مافى الوجود ويقول في كتابه " رمل وزبد ".

خيل إلى فى الأمس أنى ذرة تتموج مرتجفة فى دائرة الحياة بغير انتظام واليوم أعرف كل المعرفة أننى الدائرة وأن الحياة بأسرها تتحرك فيَّ بذرات منتظمة .

وللفكرة الوجودية السابقة ارتباط بفكرة نعيمه عن " الرجل الإلهى " واعتبار الإنسان إلاها أصغر .. وهى أيضا من الأفكار التى انحدرت إليهم من التراث المسيحى .

ويؤكد جبران إيمانه بألوهية الإنسان حين يعطينا صورة للعالم الآتى ويقول :

" هناك فى العالم الآتى سنرى جميع تموجات مشاعرنا ، واهتزازات قلوبنا .. وهناك ندرك كنه ألوهيتنا التى نحتقرها الآن مدفوعين بعوامل القنوط (٢) » ، ووحدة الوجود تبدو فى كتاب النبى وحديقة النبى .

" والوجود عند جبران يمتد إلى أعمق من مفهومه فهو قائم بصرف النظر عن صوره والأرواح عنده تتناسخ وفكرة الموت تعنى الانتقال لا العدم .

---

(١) أنظر أ . رنيكلسون فى كتابه : الصوفية فى الإسلام .
(٢) جبران : النبى .

على أن وحدة الوجود عند جبران لاتعوق نمو الشخصية ولا تحول بينها وبين الحركة الحرة المستقلة ذات الطابع الخاص .(١)

– ويلتقى جبران فى بعض نظراته للوجود مع المدرسة الأيلية وفيلسوفهم " بارمينودس " الذين يرون أن أصل الوجود هو الوجود نفسه .

ويظهر اتجاهه إلى استقلال الشخصية الفردية مع اقتناعه بوحدة الوجود فى حديثه عن الزواج : يقول المصطفى مجيبا على سؤلا " الميترا" عن الزواج " لقد ولدتما معا وحقا تظلان الى الأبد ، و ما تكونان حينما تبدد أيامكما أجنحة الموت الشهباء . نعم تظلان معا حتى فى ذاكرة الله الكتوم . ولكن دعا الفسحات تفصل بين التصاقيكما ، ودعا رياح السموات ترقص بينكما .(٢)

ويفسر د / ثروت عكاشه فى كتابه بأن ذلك يرجع إلى تأثره بشخصية (بليك) وبقراءاته لنيتشه فى قلب مدنية سريعة سطحية لا تعرف معنى التمهل أو الاسترخاء أو الاستيعاب يقول :

" لعل ذلك كله دفعه إلى هذه المحاولة البارعة فى تحليل سر الوجود وحمل الناس على فهمه والوقوف عليه " (٣)

وهو فى كتاب النبى يفسر مظاهر الوجود ويعلن موقفه حيث يتكلم عن الأشياء التى توطد علاقة الإنسان بالإنسان مثل الحب . الزواج . الأطفال . العطاء المأكل والمشرب ، العمل ، الحزن والفرح ، البيوت والثياب ، البيع والشراء .

وفى أكثر من موضع يوضح نعيمه هذا المعتقد . فهو فى كتابه " المراحل " يقول على لسان الغراب محددا معالم الإنسان الإله " أما إذا سمعتم إنسانا يقول " أنا " وعرفتم أنه يعنى نفسه والغراب كذلك . وكل مافى العالم الذى لابداية له ولانهاية فخروا أمامه ساجدين ذلك الإنسان " إله " " (٤)

---

(١) جبران النبى
(٢) السابق ١٦ .
(٣) السابق .
(٤) م . نعيمة المراحل ص ١٣٩ .

وفى كتابة زاد المعاد . يشير إلى هذا المعتقد ولكنه يناقض نفسه حين يمزج الله بالإنسان ثم يقول إن ذلك الإله سيقيم له من سلالة آدم أنبياء ، وذلك حين يقول لصاحبه " لكن سيأتيك زمان .. وهو آت كل إنسان – فيه تسلك حتى النهاية سبيل النشوة الروحية ، سبيل الذين يرون رؤى ، سبيل الأنبياء .. لأن الله الذى هو أنت وأنا وكل إنسان له من سلالة آدم سلالة أنبياء بلى وأكثر من أنبياء . (١)

– وواضح مدى التخبط فى هذه الفلسفة لأن الإنسان خليفة الله فى أرضه وآثار الله تحل فى خلقه وليس هو لأنه منزه عن التجسيد والآنية والمكانية والزمانية .

وتملك هذه الفلسفة على نعيمة أقطار نفسه فيحاول أن يبرهن على صحة معتقده ، موضحا أن الإنسان لو لم يكن إلها لما استطاع أن يعرف الله ويقول : كيف للباطل أن يعرف الحق ؟ أم كيف للمتناهى أن يستوعب اللا متناهى ؟ .

إنما النور وحده يفهم النور . والحق وحده يعرف الحق . واللامتناهى يستوعب اللامتناهى انما الله وحده يستطيع أن يعرف الله .

هو الإله الكائن فى الأنبياء الذى عرف وكشف إله الأنبياء . وهو ذلك الإله نفسه الكائن فى كل إنسان الذى فى قدرته أن يعرف الله فى كل شىء وفى كل إنسان . (٢)

ولعل نعيمة شعر بعدم قدرته على تثبيت دعائم هذه الفكرة وهى ألوهية الإنسان وأحس بالتناقض فى دفاعه عن فكرته . فخفف من كثافتها . واتجه إلى الإيمان المطلق بإرادة الإنسان وإيمانه هذا يرتبط بفكرته السابقة . ولكن البون شاسع بين من يؤمن بقدرة الإنسان وبين من يقول عنه أنه إله يقول " وذلك هو العدل كل العدل " أن يكون ثوابى فى يدى ، وعقابى فى يدى، فلا أعاتب الله ، ولا الدهر ، ولا الطبيعة ، ولا أى إنسان فيما يصيبنى من وجع فأنا قضاء نفسى . وأنا قدره . وأنا السبب الأول والأخير فى كل ما بينى وبين الناس من تفاوت فى الحظوظ .(٣)

وهو يصرح بهذا التراجع بصورة أوضح فى كتابه اليوم الأخير . وهو من الكتب التى

---

(١) جبران نعيمة : زاد المعاد ص ١٤٢ .

(٢) م . نعيمة زاد المعاد ص ١٣٧ .

(٣) م . نعيمة اليوم الأخير ص ١٥٦ .

تمثل الحلقات الأخيرة فى تفكير نعيمة يقول " إننى أحسه ولا أعيه ذلك " المجهول " هو الواحد الأحد الذى دعاه الأقدمون " الله " والإنسان هو أتم صورة له على الأرض ولكنها صورة ما تزال في طور " التطهير " وتطهيرها لا يجرى اعتباطا ، أو كيفما اتفق . بل هو يتبع نظاما دقيقا ومحكما وصارما إلى أقصى الحدود .(١)

– وبهذا يقترب نعيمة من الواقع الذى لا يستطيع أحد بعده أن يتهمه فى صحة تفكيره وفى تأكيد امتزاج الطبيعة الإلهية بالطبيعة البشرية منافاة أصلية لقاعدة الوحدانية التى قام عليها الإسلام .

ومن ينادون بفلسفة الاتحاد فى التصوف الإسلامى لا يقصدون فناء الشخصية فى المحبوب حتى لم يعد لها وجود . بل مثلها مثل القطرة فى المحيط فكما أن قطرة المطر تسقط فى المحيط فلا يقال إنها فنيت ، بل ليس لها وجود منفصل ، فكذلك الروح المتجوهرة لا يمكن تميزها من الألوهية الشاملة .

ويتفرع عن مذهب " وحدة الوجود " بعيدا عن فكرة " الإنسان " الإله " التى تراجع نعيمه عنها عدة أفكار وجودية منها .

أ – تتلاشى عنده حدود الزمان والمكان ، والمسافات الفاصلة بين جزيئات الوجود . فكل شىء ابن اللحظة . وهو فى هذا يلتقى مع جبران فليست هناك توقيتات معينة وإنما فى كل لحظة تتجمع الآزال والآباد . وفى كل بقعة من الأرض تتجمع الأرض كلها كما تجتمع مياه البحار فى القطرة الواحدة من الماء يقول :

" والخيال الذى يطوى كل الزمان فى " الآن " ويحشر كل المكان فى " هنا " لا يبصرشيئا من هذا التفاوت . (٢)

ب – والكون يسير بحركة كليه شمولية فأصغر ما فى الحياة فيه سر أكبر ما فيها يقول :

" فإذا ما أكلتم ثمرة فكأنكم أدخلتم إلى جوفكم الحياة بأسرها . لأن كل مافى الحياة قد تعاون في تكوين تلك الثمرة . إذا ماصافحتم إنسانا فكأنكم صافحتم كل إنسان من

(١) السابق ص ١٠٠ .
(٢) م . نعيمه زاد المعاد ص ١٥ .

آدم حتى آخر آدمى يمشى على سطح الأرض لأن كل إنسان يحمل فى نفسه كل الناس " (١)

وهو فى هذا الاتجاه يلتقى مع أبى ماضى . فى " الحجر الصغير " ومع جبران فى فلسفته التى تعطى لكل شيء أهمية فى الوجود مهما قل حجمه . والثقافة العلمية تؤازرهم فى إعطاء أفكارهم قيمة موضوعية . فالنواة هى أصل الخلية ، والخلية منها يتكون مجموع الكائن أى كائن والكائن رمز الوجود . والوجود هو الكائن .

يقول نعيمه " إن أصغر ما فى الحياة يتمم أكبر مافيها . وإن أكبر ما فيها يخدم أصغر مافيها فلا الجبل أفضل من ذرة الرمل ولا الثور أعظم من الضفدع . ولا الثمرة أثمن من الحطبة ولا الزهرة أقدس وأجمل من الشوكة .(٢)

ونجد هذا الاتجاه نفسه عند أبى ماضى فى قصيدته " الطين " وقصيدته " الأسطورة الأزلية ، وقصيدته " الحجر الصغير " .

جـ - والخيال إكسير الوجود . أما العقل والحواس وحدها فلا يرى فيهما نعيمه إلاشقاء للبشرية إذا هى ظلت ملقية إليها قيادها . فالخيال فى نظره يهتك حجاب المجهول وينفذ إلي صميم الأشياء . ويهزأ بالمسافات والحدود والأعمار وجعل أول مقاله له بكتابه " زاد المعاد" بعنوان " الخيال " وعرف الخيال بأنه " هو مقدرتكم أن تبصروا وأجفانكم مغمضة ؟ وتسمعوا وآذانكم مسدودة ، وتشموا وفى أنوفكم سطام ، وتذوقوا وألسنتكم فى غلاف ، وتلمسوا وأياديكم مشلولة . هو مقدرتكم أن تدركوا حدود الحواس الخارجية فتجعلوا منها عبارة تجتازون بواسطتها إلى حيث لا حدود " .

أما العقل الذى يغالى الناس فى تكريمه فليس سوى ولد جموح يقوده الخيال من أنفه ولكن قلما يمشى به بعيدا . فاحذروا من أن تلقوا كل اتكالكم عليه ، أو ما ترونه يجهد ذاته بغير انقطاع ، بغير جدوى ، في تفهم أسرار الكون .

وهو ما يزال فى جهده كالولد الذى أعطيتموه أكداسا من الوريقات الملونة وأمرتموه أن

---

(١) السابق ص ٥٣ .

(٢) م . نعيمه : زاد المعاد ص ٢٢ .

يركب منها صورة حيوان أو إنسان . (١)

٢ - تناسخ الأرواح :

ويرجع اعتقادهم فى تناسخ الأرواح إلى التأثر بفلسفات قديمة وبخاصة فلسفة الهنود والفرس . فقد استقرت فى فارس منذ القدم مذاهب التجسيد والتشبيه والتناسخ ولهذه الفلسفة أيضا بنورها فى التصوف الإسلامي ويمكن أن نطلق عليها فلسفة الترقى فى سبيل الاتحاد عن طريق التناسخ من أجل البقاء ولنسمع جلال الدين الرومى يحكى قصة التحول فى سبيل البقاء .

مـــــت معـــــدنا وصـــــرت نبـــــاتا
ومـــــت نبـــــاتا فنهضـــــت حيـــــوانا
ومـــــت حيـــــوانا وكـــــنت إنســـــانا
ولـــــم أخـــــاف ؟ ومتـــــى انقضـــــى المـــــوت ؟
ســـوف يموت منى الإنسان لأخلق مع الملائكة المقربين
بـــــل ســـــأدع الملائكيـــــة. (٢)

وظهرت آثار هذه الفلسفة فى كتاب " حديقة النبى " لجبران . وذلك فى حديث المصطفى لحواريه عن الوجود : يقول جبران .

" وبعد برهة سأله حوارى وقال حدثنا عن الوجود أيها السيد . وكيف تكون الكائنات ؟

ونظر إليه المصطفى مليا ، وفاض قلبه بحبه ثم نهض وسار بعيدا عنهم وعندما عاد قال : فى هذه الحديقة يرقد أبى وترقد أمى ، وقد وسدتهما الثرى أيدى الأحياء . وفى هذه الحديقة تغيب بنور السنة الماضية حملتها إلى هنا أجنحة الريح ولسوف يرقد فى الثرى ألف مرة جثمان أبى وجثمان أمى ، وألف مرة ستوارى الريح البنور ولسوف نقبل معا بعد ألف عام . وأنا وأنتم وهذه الزهرات إلي هذه الحديقة كما هى حالنا الآن وسنكون من عشاق الأرض ، وسنكون من الصاعدين إلى السماء .(٣)

---

(١) م . نعيمة : زاد المعاد ص ٩ .
(٢) أ . رنيكلسون : الصوفية فى الإسلام ص ١٥٨ .
(٣) جبران : حديقة النبى ص ٩١ .

وظهرت فى قصص جبران آثار هذه الفلسفة .. ومنها قصة " الشاعر البعلبكى " و " البنفسجة الطموح " ومسرحية " إرم ذات العماد " ، وقصة " رماد الأجيال والنار الخالدة " ، وقصة الشيطان " (١)

والسبب المباشر فى اتجاه نعيمه إلى هذه الفلسفة هو اشتراكه فى جمعية أمريكية حين ذهب إلى أمريكا كانت تدعو إلى مذهب التقمص وتناسخ الأرواح .

وعبر عن معتقده هذا فى كتاباته الكثيرة . وهو يعطى لفلسفته قيمة علمية تجريبية توقعه فى شرك الماديين وهو الذى يحارب الهياكل ويدعو إلى تقديس الروح والخيال يقول فى مقالته " مهماز البقاء " (٢) من منا إذا عن له يوما أن يحلل نفسه نظير ما يحلل الكيميائى مركبا كيميائيا تمكن من أن يرد أعصابه وعظامه ولحمه ودمه إلى مصادرها ؟ أليست أجسادنا تتكون من جسد الكون ، وتتغذى به لتعود فتساعد فى تكوينه وتغذيته ؟ وفى مقالته " طائر الفينكس " أسطورة الحياة المثلى .(٣) يؤكد فلسفته ويعتمد على الأسطورة لإعطاء فلسفته قيمة أدبية وعلمية عالية . ويقول : فالروح تبقى كامنة فى الرماد لتعود من جديد فى صورة " فينكس آخر " ونعيمه فى هذه المقالة يوافق النظرية الفلسفية القائلة بأن أصل العالم هو النار وهى نظرية " هير قليطس " .

والنار التى يقصدها نعيمه هى روح طائر الفينكس يقول نعيمه : إن الموت والحياة لأن مصدرهما واحد . وهو الروح المرموز إليه بالنار . فالنار أبدا هى التى تلتهم الأشياء ثم تكثرها وتنوعها ، لكنها لا تلتهم ولا تكثر أو تنوع ذاتها هى النار – أو الروح – تلك الحياة الأولية التى يدعونها العلم الحديث – الطاقة – تنظم ذرات الأشياء على اختلاف أنواعها ثم تنثرها فهى متغلغلة فى كل شىء .

وهى عندما تلتهم شيئا ترده إلى عناصرها الأصلية . فلا تتلاشى بل تنعتق من سجنها الوقتى . وهكذا عندما يحرق الفينكس نفسه لا " يموت " حتى لحظة واحدة لأن النار التى هى روحه تبقى كامنة فى رماده .

وهى التى تعود فتجمع ذراته من جديد فتكون منها فينكسا آخر جديدا فهو وإن بدل

(١) فى كتاب : مقالات وبحوث فى الأدب المعاصر » للمؤلف تحليل لهذه القصص وبيان لأهم القضايا التى تثيرها .
(٢) م . نعيمة : صوت العالم ص ٢٩ .
(٣) السابق ص ٩٦ .

جسده مرة فى كل خمسمائة سنة لا يبدل الروح التى لا يطرأ عليها انقطاع أو تغيير (١) .. وطائر الفينكس يضيف رافدا جديدا إلى روافد نعيمه الثقافية وهو اطلاعه على فلسفة القدماء المصريين وآدابهم ، ويقول مشيدا بهم لا جدال فى أن سواد الشعب المصرى القديم كان يتخذ الشمس معبودا له أما مؤلفو كتاب الموتى وشائدو الأهرام وخالقو أبى الهول وإيزيس وأوزوريس وأسرارهما ، ومعلموا ديمقريط وفيثاغورس وأفلاطون . فكيف تصدق أنهم كانوا يتعبدون جرما سماويا مهما عظم ذلك الجرم وعجب وهم قد رادوا الفضاء واكتشفوا النجوم .(٢)

وفى كتابه المراحل قصتان تشيران إلى معتقده فى التناسخ أو التقمص وهما "الانتحار ، وحبتان من القمح . (٣) .. وفى كتاب " اليوم الأخير " (٤)

يوضح نعيمه معتقده فى التناسخ بصورة جديدة فيطلق عليه تجدد الشخصية .. وهى أنّ الإنسان يعيش أكثر من حياة . وكل حياة يعاقب فيها على ماقدمه فى حياته السابقة . ويرفض فكرة الموت مرة واحدة ثم البعث للحساب . ويقول من تتجدد شخصيته مرة واحدة فهى قابلة للتجديد أكثر من مرة . ويميل إلى الافتراض الثانى . وكعادته لم يدلل على افتراضه . ففقدت نظريته منطق الثبات والاقناع .

وتظهر آثار هذه الفلسفة فى أشعار أبى ماضى . فهو يخاطب زوجته " دوروثى " فى قصيدته " الدمعة الخرساء " (٥) حين قالت " أنموت وتنقضى أحلامنا .. فى لحظة وإلى التراب نصير . يقول :

فأجبتها لتكن لديدان الثرى ... أجسامنا إن الجسوم قشورُ
فاذا طوتنا الأرض عن أزهارها ... وخلا الدجى من وفيه بدورُ
فسترجعين خميلة معطارة ... أنا فى ذراها بلبل مسحورُ
أوجَدْ ولا مترقرقا مترنما ... أنا فيه موج ضاحك وخريرُ
أو ترجعين فراشة خطارة ... أنا فى جناحيها الضحى المنشورُ
أو نسمة أنا همسها وحفيفها ... أبدا تُطَوِّفُ فى الربا وتدورُ
أو نلتقى عند الكثيبِ على رضى ... وقناعة : صفصافة وغديرُ

(١) السابق ص ١١١ .
(٢) السابق ص ١١٠
(٣) م . نعيمة : الراحل ص ١١٢ – ١٢٥ .
(٤) أنظر تحليل رواية اليوم الأخير فى كتابنا « مقالات وبحوث فى الأدب المعاصر »
(٥) إيليا أبو ماضى : الجداول ص ١٧٨ .

ومن الغريب أن أبا ماضى يعد هذه الفلسفة من باب الوهم والتخدير لشاعر زوجته حتى لا تصدمها الحقيقة المرة حقيقة الموت والفراق الأبدى .

فبعد أن يمنيها بأنهما سيرجعان ويتقمصان الكائنات الطبيعية : يقول :

فتبسمت ويد الرضا فى وجهها ... إذْراقها التمثيل والتصويرُ
عالجتها بالوهم وهى قريرةٌ ... ولكم أفاد الموجع التخديرُ

لكنه فى قصيدة " قطرة الطل " (١) يؤكد هذا المعتقد فى التقمص والتناسخ فيقول :

إن تر زهرة ورد ... فوقها للطل قطره
فتأملها كلمعز ... غامض تجهل سره
ولتكن عينك كفًّا ... وليكن لمسك نظره
ليست الحمراء جمره ... لا ولا البيضاء درّه

* *

رب روح مثل روحى ... عافت الدنيا المضره
فارتقت فى الجو تبغى ... منزلا فوق المجره
علها تحيا قليلا ... فى الفضاء الحر حره
ذرفتها مقلة الظل ... ماء عند الفجر قطره

* *

وفى قصيدته " لم يهدم الموت إلاّ هيكل الطين " .(٢) التى يرثى بها صديقه الشاعر نسيب عريضه يؤكد إيمانه بهذه الفلسفة ويقول :

لسوف يرجع عطرا فى الرياحين ... أو نسمة تتهادى فى البساتين
أو بسمة فى ثغور الخُرّد العين ... فالموت ما هو إلا هيكل الطين

" لا تحزنوا . فنسيب غائب حاضر "

---

(١) السابق ص ٩
(٢) إيليا أبو ماضى : تبر وتراب ص ١٩٤ .

والشاعر رياض المعلوف يؤمن بهذه الفلسفة ويعترف بهذا فى رسالة أرسلها إلىّ مجيبا عن سؤال وجهته إليه قائلا له : الوجود : مارأيكم فى بدايته ونهايته . وفلسفة التقمص والتناسخ ووحدة الوجود ؟ .. وكانت هذه إجابته :

جـ – لا بداية ولا نهاية للوجود .

ويجوز أن تتقمص الروح بشخص آخر أو بنبتة فى النبات فإذا كان ذلك ممكنا فأود أن تتقمص روحى بشاعر إنسانى جديد يولد مكانى ويفوقنى شاعرية وإنسانية !

فإذا . سعب ذلك فأتمنى أن تنبت فى روح تضمخ الجو بعطرها الشذى !!

والوجود يتحمله الإنسان مرغما . شاء أم أبى ! لأنه لم يخير فى وجوده وكيانه ! وهو مرغم على ما يحصل له في أكثر الأحايين . فوجود الإنسان والأقدار والأعمار كلها بيد الله عز وجل .

– والوجودية العصرية هى التعبير الحسى والعملى عما يكمن فى عقل الإنسان وباطنه من كبت وتحفظات وتقاليد ، فيفعل هكذا ما يروقه له دون أى تحفظ أو خوف من الملامة !

ورائد الوجودية الحديثة جان بول سارتر " اتخذ من الوجودية بدعة اشتهر بها وأصبح له فيها اتباع حقق لهم بها انتفاضة على التقاليد والحياء والخوف والحذر من تصرفات الإنسان الوجودى حتي الشاذة منها فوجدوا فى الوجودية علة وجودهم ، وزيا جديدا يرفهون به عن نفوسهم وأجسامهم المتعبة من أعباء الحياة اليومية الرتيبة !!

وكل انسان صريح للغاية هو وجودى النزعة .

زحلة – لبنان ١٩ يناير ١٩٧٨ رياض المعلوف (١)

٣ – الثنائية :

واعتقد المهجريون بثنائية الوجود فالشر والخير ممتزجان فيه فليس خيرا كله وليس شرا كله . وفى نتاجهم تتضح هذه الفلسفة حتى فى طريقة الأداء فهم مولعون بالمقابلات اللفظية والمعنوية والمساواة بين الأضداد وكأنهم بذلك يوحون إلى القارىء والسامع بأن الوجود مبنى

(١) من رسالة أرسلها الشاعر إلى فى ١٩ من يناير ١٩٧٨ م

على هذا الأساس : فما القصائد إلا تصوير لمتناقضات الوجود ورصد لواقعه وتحركاته .

* *

فقصائد نعيمه " الخير والشر" والعراك ، و " يابحر " [١] وغيرها من القصائد تمثل هذا المعتقد . وقد مر نعيمه بثلاث مراحل هى مرحلة القلق وعدم وضوح الرؤية ثم مرحلة الجيشان العاطفى ثم مرحلة الصراع والاعتقاد في الازدواج والثنائية فهو فى قصيدة " يابحر " يستدرج البحر بتساؤلاته السقراطية ويبثه مشاعره وأفكاره ومن خلال الارتباط بينه وبين الطبيعة يأتى الحل فى نهاية القصيدة بعد أن أخذت الخط الدرامى العضوى المتنامى والنهج القصصى ، وعندما تبلغ الدراما قمتها يأتى الصباح رمزا للحل الفكرى .

يقول معلنا تناقض الكون وازدواج الوجود وثنائيته . فالإنسان روح وجسد وفى الناس خير وشر والكون طيٌّ ونَشْرٌ .

يـــا بحـــر .. يابحـــر قـــل لـــى ... هـــل فيـــك خـــير وشـــرٌ ؟
وقـــفـــت والـلـيـــل داج ... والـبـحـــر كـــرٌّ وفـــرٌ
فـــلـــم يـــجبنـــى بـحـــر ... ولـــم يـــجـبنـــى بـــرٌ
وعنـدمـــا شـــاب لـيـلـــى ... وكـــحـــل الأفـــق فـجـــر
سـمـعـــت نـهـــرا يـغـنـــى ... الـكـــون طـــيٌّ ونَـــشْـــرٌ
فـــى النـــاس خـــير وشـــر ... فـــي البحـــر مدٌّ وجـــزر [٢]

وامتدادا لفكرته فى تجدد الشخصية يعتقد أنه يحيا كل يوم حياة جديدة ، وسكرة الموت كذلك تغشاه كل يومْ وضباب الشك يعذبه " أحيانا " وهو يعاني من الازدواج الداخلى والانقسام النفسى والصراع بين التسليم والعناد فالكون أسراره ومبعث همه . [٣] .. ويقول فى خطابه للدودة .

---

(١) همس الجفون ص ٦٤ – ٩٦ – ٩٧ .
(٢) م . نعيمة : همس الجفون ص ٩٧ .
(٣) أنظر مذكرات الأرقش ص ١٢٤ للوقوف على مزيد من الأحداث التى توضح هذه الفكرة .

ولولا ضباب الشك يا دودة الثرى ... لكنت ألاقى فى دبيبك إيمانى
لك الأرض مهد والسماء مظلة ... ولى فيهما من ضيق فكرى سجنان
ففى داخلى ضدان قلب مسلم ... وفكر عنيد بالتساؤل أضنانى
لعمرك يا أختاه مافى حياتنا ... مراتب قدر أو تفاوت أثمان (١)

وفى قصيدته " لو تدرك الأشواك " يبدو هذا الإحساس واضحا : الموت والحياة فى آن واحد . فهو يخاطب من يبكى على فقيده بين القبور ويؤكد له أن حزنه مؤقت أما هو ففى كل يوم يدفن حبيبا :

لكن غدا تنساه أما أنا ... ففى حياتى كل يوم دفين.
إذ أننى أجتث زاد البلى ... منى وكم يبلى رجاء ثمين
فى لحظة من عيشنا الفانى (٢)

ويلتقى الماضى بالحاضر بالغد فى صورة السنة المقبلة التى تختفى فيها الأزمان والآماد والناس فى أسرارها حائرون . يقول : إلى سنة مقبلة .

ما أنت فى سفر الزمان العظيم
إلا صدى الماضى وصوت الغد
فيك استوى من قبل أن تولدى
قطبا حياة نحن فيها نهيم
لاجوعها يشبع
لاموتها يهجع
لاطامعا يقنع
فيها ولا الزاهدون
الناس فى أسرارها حائرون
والسر لو يدرون فيها مقيم (٣)

---

(١) م نعيمة : همس الجفون ص ٨٣ .
(٢) السابق ص ٢٨ .
(٣) السابق ص ٢٧ .

والموت عند نعيمه وجه الحياة الآخر .. فهو يصور اللحد بأنه مهد الحياة قائلا فى تفاؤل غريب :

وعندما الموت يدنو واللحد يفغر فاه
أغمض جفونك تبصر فى اللحد مهد الحياة (١)

وأسطورة " الحكاية لأزلية "(٢) عند أبى ماضى تمثل هذه الظاهرة ولكن أبا ماضى لا يدعو إليها ولا يتحمس لها ولكن يريد تحطيمها . فالجمال والقبح . والخير والشر ، والكمال والنقص والشوك والزهر ، . كلها أسماء وضعها الإنسان ليعرف الواحد منها بالآخر ولكن لا وجود إلا لصفحة واحدة منها على الأرض إذ تمحى مشكلة الصراع بين الثنويات "(٣) .

وأبو ماضى كثيرا ما يناقض نفسه .. فبينما هو فى الأسطورة الأزلية يدعو إلى " تحطيم الثنائية " إذا به فى " الطلاسم " يقرها فى نفسه لكن لا يعرف حقيقتها ويبدو أنه متأثر بنعيمه فى قصيدته " الشيطان والملاك " إنه يتساءل عن مصدر الأفكار والخواطر التى تعتلج فى عقول البشر وضمائرهم فلا يجد جوابا ويرى ما يقوم فى نفسه من صراع بين الخير والشر أو بين الملاك والشيطان كما يقول وما يدفع إليه كل منهما من لذة أو عفة . من سعادة أو شقاء ، من اشتهاء أو كراهية . من حب أو بغض من حسن أو قبح ، وهو يقابل بين المظاهر السابقة جميعا لكنه – لا يهتدى من مقابلاته إلى شىء يبدد حيرته .

يقول :

إننى أشهد فى النفس صراعا وعراكا
وأرى ذاتى شيطانا وأحيانا ملاكا
هل أنا شخصان يأبى ذاك مع هذا اشتراكا
أم ترانى واهما فيما أراه ؟ لست أدرى .(٤)

وقد دفع الإحساس بالثنائية جبران إلى التمرد على الوجود الخارجى المحس والثورة على أوضاعه ولذلك نشتم رائحة الغربة والحنين الدائم إلى المثالية عند جبران وكان فى قلبه فراغ لم يملأه بخور المعجبين ، ووحشة لم تؤنسها طيوف الشهرة يقول :

---

(١) السابق ص ٩ .
(٢) أبو ماضى : الخمائل ص ٢٢٢ .
(٣) د / إحسان عباس ، ومحمد يوسف نجم : الشعر العربى فى المهجر ص ٥١ .
(٤) أبو ماضى : الجداول ص ١٦٣ .

" أنا غريب فى هذا العالم ، وفى الغربة وحشة موجعة تجعلنى أفكر بوطن سحرى لا أعرفه وتملأ أحلامى أشباح أرض فضية ما رأتها عينى " ، . وشعوره بالغربة وتمرده على وجوده كانتا بذرتين خفيتين أينعتا فى وجدانه وأثمرتا ورأيناه يبدع فى قصيدته " البلاد المحجوبة " و " المواكب " .

فالبلاد المحبوبة تقوم على الثنائية إنها نور ونار ، والمواكب مبنية على الصراع بين حياة المدينة وحياة الغاب ، بين الفتى والشيخ .. ولا شك أن هذا التناقض صورة لنفسية جبران المتصارعة ولإحساسه الباطنى دور فى إنتاجه مثل هاتين القصيدتين وغيرها " فإن كثيرا من الدوافع النفسية التى تدفع الإنسان إلى النتاج الفنى بوجه عام والأدبى بوجه خاص ، مرده إلى النزعات الباطنية المكبوتة التى تؤثر فى الحياة الشعورية تأثيراً لا يشعر به الإنسان .

فإن العقل الباطن ليس خامدا هامدا ، ولكنه يقظ فعال ، يؤثر فى حياة الإنسان العقلية دون شعور منه ، وبخاصة مايسمى بالعقد النفسية وقد برهن علم التحليل النفسانى على أن هذه العقد تتكون فى العقل الباطن منذ الطفولة الأولى وتبقى كامنة فيه لا يشعر الإنسان بها حتى فى عهد الكبر ، ولكنها تعمل عملها البعيد الأثر فى حياته دون شعور أو قصد منه ، وقد يكون لبعضها تأثير خاص فى النتاج الفنى (١)

وشعوره بالغربة فى بلاده المحجوبة والتمرد على المجتمع المادى والحضارة المزيفة فى " المواكب " مرده إلى هذا الأثر النفسى الذى نشأ من إحساس جبران بثنائية نفسه وازدواج العالم الخارجى من حوله .

يقول : فى البلاد المحبوبة محددا مكان هذا الوجود .. الحلم

يـا بـلاد الفكـر يا مهـد الألـى ... عبـدوا الحـق وصلـوا للجمـالْ
مـا طلبنـاك بـركـب أو علـى ... متن سفـن أو بخيـل أورجـال
لسـت فـى الشرق ولا الغـرب ولا ... فـى جنـوب الأرض أو نحـو الشمال
لسـت فـى الجـو ولا تحت البحـارْ ... لسـت فـى السهـل ولا الوعر الحـرج
أنـت فـى الأرواح أنـوار ونـارْ ... أنـت فى صـدرى فـؤاد يختلـج (٢)

---

(١) حامد عبد القادر : دراسات فى علم النفس الأدبى ص ٢١ .
(٢) جبران البدائع والطرائف ص ٩٥ .

وقصيدة " المواكب " كما يفهم من ظاهرها قصيدة اجتماعية .

ولكن حينما نتأملها ونعرف رسالة جبران الإصلاحية نصل إلى عمقها الحقيقى وهو التأمل فى جوهر الوجود .

والمعنى الظاهرى يأتى علي لسان الشيخ فى صورة هتاف اليأس من حياة المدينة والمعنى العميق يتغلغل فى روح الفتى العارى الخارج من الغاب يعزف على نايه بمرح ونشوة فهو يرمز إلى وجه الوجود المتجرد من كل الأقنعة التى تكشف عن سر المعرفة الحقيقية إلى الجمال المطلق .

وقد آمن أبو ماضى فى فترة من حياته بالوجود المادى حيث ربط وجود الروح بوجود الجسد وفناءها بفنائه وحسب الخلد من الأوهام الزائفة وهو بذلك ينفى عقيدة التناسخ التى نادى بها نعيمه وجبران ومن حذا حذوهما من المهجريين .

وقد جاء بشعر مباشر تقريرى وقد ناقش هذه القضية مناقشة عقلية بعدت بها عن روح الشعر يقول .

غلط القائل إنا خالدون ... كلنا بعد الردى هيّ بن بيّ
فمن الزور الموشى والفند ... قولنا الأرواح ليست تصرع
لم تكن موجودة قبل وجد ... ولهذا حين يمضى تتبعُ
تلبث الأفياء مادامت غصون ... فاذا ما ذهبت لم يبق فيّ

والشاعر هنا يأتى بتشبيه ضمنى فى البيت الأخير ويريد أن يقول إن الأجساد كالغصون والأرواح كالظلال .. فإذا ما قطعت الغصون هل تبقى الظلال ؟ . ومعنى هذا أن الروح بمثابة الظل للجسد . والحق أن الروح هى الأصل والجسد هو الطارىء عليها فالروح تهبه الحياة وعندما تفارقه يفقدها .. وعن معتقد أبى ماضى يقول جورج صيدح " إنه قول لا يخلو من شطط " (١)

– وكما أن تناسخ الأرواح لا يتفق مع العقيدة الإسلامية كذلك القول بفناء الروح عندما يفنى الجسد مرفوض أيضا لأن الروح موجودة قبل الجسم وتبقى بعد فنائه وتحول أبو ماضى بعد ذلك عن هذا الرأى وآمن ببقاء الروح لأنها الجزء الباقى فى الإنسان فقال لزوجته مقرا

(١) جورج صيدح : أدبنا وأدباؤنا فى المهاجر الأمريكية ص ٢٢٢ .

بالبعث .

لا تجزعي فالموت ليس يضيرنا ... فلنا إياب بعده ونشورُ
إنا سنبقى بعد أن يمضي الورى ... ويزول هذا العالم المنظورُ

* *

- ٤ -

الاندماج الكلى فى الوجود وبثة الشكاة والأحزان أو اتخاذه نموذجا للمساواة المطلقة والأخوة الإنسانية .

- " فايليا أبو ماضى " ينظر إلى الوجود نظرة كلية ، ويندمج فى مشاهده الخارجية ويعبر المسافة التى تفصله عنه .. لينفذ إلى صميم فكرته ، ويتوصل إلى الأسرار الكامنة داخل الوجود فهو كالراهب والصوفى حين يتصور أن الليل راهبه ، والشهب شموعه ، والأرض محرابه ، والفضاء كتابه ، وصلاته ما تقول السواقى ، وغناؤه صوت الصبا فى الغاب ، ويد السماء تكحل جفونه ، وأحلامها تعانق أهدابه ، وفم الصباح يقبل جبينه ، وأريجه يعطر جلبابه .

وكتابي الفضاء أقرأ فيه ... صورا ما قرأتها في كتاب
وصلاتي الذي تقول السواقي ... وغنائي صوت الصبا في الغاب
ولتكحل ليل السماء جفوني ... ولتعانق أحلامها أهدابي
وليقبل فم الصباح جبيني ... وليعطر أريجه جلبابي
إنما نفسي التي ملت العمران ... ملت في الغاب صمت الغاب (١)

والوجود الإنسانى هو الألف والباء فى أدب جبران ، وهو الحقل الذى يغرس فيه عصارة روحه وشعوره وفيض عقله وخياله . (٢)

حيث يعتقد أن كل إنسان أخوه فى رابطة الإنسانية أو صورة فى محيط الوجود الذى لا ينفصل ، وذلك لأن المحبة هى ربه ومعلمه على كل حال . (٣)

---

(١) إيليا أبو ماضى : الجداول ص ٤٩ ، ٥٠ .
(٢) عيسى الناعورى : أدب المهجر ص ٣٥٧ .
(٣) السابق ص ٣٥٦ .

ويتطورهذا الإحساس عند جبران إلى الذوبان فى مظاهره الكونية فالبذور هى الغابات – والدود ربما يصير ملائكة ، والمسافة الشاسعة بين هذا التحول هى اللحظة . فالوجود لحظة ، والسنون لحظة .

يقول على لسان المصطفى " أقبض قبضة من هذا الثرى الطيب . ألست تجد فيها بـذرة ، وربما دودة ، لو أن راحتك من الرحابة والاحتمال بمكان فلربما غدت فيها البذرة غابة ، ولربما أصبحت الدودة جمعا من الملائكة .

ألا لا يغيبن عنك أن السنين التى تجعل من البذور غابات وتحيل الدود إلى ملائكة هى بنت اللحظة . والسنون كلها هى اللحظة ذاتها .

والوجود فى رأى جبران لا يفنى وإنما ينتقل من صورة إلى صورة أخرى فهو يقول " ما كانت حياتنا هباء . أو لم تشيد البروج من عظامنا " (١) .. وهو فى هذه الفكرة متأثر بأبى العلاء المعرى فى قوله :

خـــفف الـــوطء مـــا أظـــن أديـم الأرض إلا من هـــذه الأجســـاد

و متأثر بالخيام فى فكرته التى نظمها أحمد رامى شعرا :

فـامـــش الهـوينـــا إنّ هـذا الثـــرى مـــن أعـــين ساحـــرة الاحـــوار(٢)

وقادهم هذا الاحساس المتعاطف مع الوجود الإنسانى إلى الشعور بالإشفاق على المحرومين والكادحين .. والنزعة الإنسانية شائعة فى الأدب المهجرى .. شيوعا لا يخفى على دارسى الأدب . ومن الذين أضفوا على نزعتهم الإنسانية مسحة فلسفية نسيب عريضه ، وميخائيل نعيمه ، وجبران وأبى ماضى .

" فنسيب عريضه فى نظرته للوجود يبتعد عن الخوض فى المسائل " الميتافيزيقية ولكنه يعيش مع المحرومين . والفقراء ويتمنى لهم حياة أفضل وهو فى هذا يلتقى مع جبران إلا أن جبران كان يريد الإصلاح ويجد في الوصول إليه وخاصة فى كتابه النبى وحديقة النبى .. أما نسيب فهو يكتفى بالبكاء والنواح ولا يملك غير ذلك وهو فى ذلك متأثر بالرومانتيكية " الغربية بما فيها من تشاؤم وإحباطات وضعف يغمر النفس البشرية . فهو مهما ارتفع إلى النجوم وانبسط على مدى الأفق وغاص إلى أعمق اللجج كما عبر عنه ميخائيل نعيمه لا تغيب عنك عنده تعاسة البشر الموضوع الدائم لشعره .

---

(١) جبران : رمل وزبد ص ١٥ .

(٢) أحمد رامى : رباعيات الخيام ص ٤٣ .

عـــن فقـــير حاســـد طـــير السمـــا　　عـــن طـــريد مـــالـــه العمـــر مـقـــر
عـــن عـــذارى بـذلـت أعراضـــهـا　　فـى سبيـــل العيـــش يابئـــس التجـــر
بـــاطـــلاً تَـرْجُـون لَـحْنـــا مفرحـا　　قطعـــت أطـرب أو تـــارى العـــبـــر (١)

وهو يتعاطف مع الباكين على البشر وحالهم .

مـــزقـــوا قلبـى مـــع الباكـــين فـــى　　مأتـــم العيـــش علـى حـال البشـر (٢)

ويغوص الشاعر فى محيط الأسئلة عن بواطن الوجود وظواهره . وحين لا تهلل القمم للرياح يقول :

لمـــاذا تهـــب الـريـــاح عـلـــى　　شواهـــــق ليســـت بها حافلـــة (٣)

والرياح هنا رمز للوسيلة التى تجرى وراء الأهداف والغايات ولكن لا جدوى والريح التى يهزأ بها الصخر هى التى ستسير السفينة برغم أن البحر زاخر بالموج .

لمـــاذا السفينـــة تطلـب ريحـــا　　ومـــن تحتهـــا أبحـر هائلـــة (٤)

وحين يرى ظمأ المرتادين للصحراء يقول متسائلا :

وفـــى القفـــر عطـــشى يريدون مـــاء　　وريـح السمـــوم بـهـــم نـازلـــه (٥)

ثم يتساءل حين يرى الناس لا يجنون ثمرة من وراء حبهم أو إحساسهم أو عيشهم :

لمـــاذا نحـــب لمـــاذا نحـــس ؟　　لمـــاذا نعيـــش بـــلا طائـــلـــه (٦)

وتصدمه حقيقة الموت المرة فيتساءل عن كثرة النسل إذا كانت فاجعة هكذا فما فائدته :

لمـــاذا التنـــاسل والنســـل يـــدرى　　بـــأن الحيـــاة لـــه قـاتـلـــه(٧)

---

(١) نسيب عريضه : الأرواح الحائره ص ١٧ .
(٢) السابق .
(٣) السابق ص ٤٤ .
(٤) السابق .
(٥) السابق .
(٦) السابق ص ٤٥ .
(٧) السابق .

ويحاول أن يجيب على نفسه بسخرية لاذعة :

أكيمـا تـــزيـد المقـابـر رمـســـا ونصغـــى إلـــى رنـــة الشـاكلـة ؟ (١)

ويصدم بالتناقض الوجودى حيث اللبيب محروم والجاهل فى يسر ورخاء فيعض على قلبه ويهتف من أعماقه :

لمـــاذا يفـــوت الأديـــب الغنـــى وتحظـــى بـــه فـْـنـة جاهلـــه (٢)

وهذا الإحساس تكرار لإحساسات سابقة فقديما قيل :

كـــم عالـــم عـــالٍ أعـــيت مـذاهـبـــه وجـــاهـــل جـــاهـــل تلقـــاه مرزوقـــا
هـــــذا الـذى تـــرك الأوهـــام حائـــرة وصـير العالـــم النحـريـر زنـديـقـــا

وميخائيل أحس بهذا الإحساس لكنه حاول أن يقنع نفسه بأن قصره هو قصر أفكاره وأحلامه فهو لا يملك سواه يقول :

لا . لا تـقـــل مـــاراقـــنـــى قـــصـــــرك العالـــى أو انـــى لـم يطـب لـــى هـــواهْ
بـــل إن لـــى يـاصـاح قصـــرا أبـــت نـفسـى بـأن تلجـــا لقصـــر ســـواه
ذا قصر أفكارى وأحلامى
لا والـــذى الأقـــدار خـــدامـــــه مـــافـــى فـــؤداى غمـــة مـــن غنـــاك
إذ قـــد حبـانـى الحظ بعض الغنـــى يـاصاحبـى مـن غـير مـاقد حبـــاك
فاحشـــد ولا تشفـــق علـــى فقـــرى (٣)

وتتردد هذه النغمة فى قصيدة " الطين لايليا أبى ماضى .

* *

ويدافع من الشعور الإنسانى المرهف تجاه الوجود البشرى يؤمن جبران بالمثال العام المطلق . فمعدن الناس واحد . مهما اختلفت نوازعهم وأخبارهم يقول " عندما تبلغ قلب الحياة تجد أنك لست أرفع من المجرمين ولا أدنى من الأنبياء فالناس كلهم فى مرتبة واحدة "

وهو يحن دائما للمجهول والوصول إلى مجاهل الأبد ، لأن فى عالمه غير المنظور أشياء لا ترى ولا تسمع يقول :

(١) السابق .
(٢) السابق .
(٣) م نعيمة : همس الجفون ص ٣٣ .

" أشتاق إلى الأبدية لأننى سأجتمع فيها بقصائدى غير المنظومة وبصورتى غير المرسومة .

ويندمج جبران فى الطبيعة ليأخذ منها الأدلة المقنعة التى تبرر موقفه من وحدانية الوجود ، ويأسف لأن الإنسان ليس فى متناوله هذا الدليل العلمى فيقول : إنك لو جلست على السحابة لما رأيت الحد الفاصل بين بلاد وبلاد ، ولا الحجر الفاصل بين حقل وآخر ولكن يا للأسف إنك لن تستطيع أن تجلس على سحابة .

وفى قصصه تتضح هذه النظرة أيضا كقصة " رماد الأجيال والنار الخالدة " وهو أيضا يستشهد بالطبيعة ليبرر موقفه ويصور لنا الموت بأنه حالة عابرة يقول :

ولكن الأجيال التى تمر وتسحق أعمال الإنسان لا تفنى أحلامه ، ولا تضعف عواطفه ، فالأحلام تبقى ببقاء الروح الكلى الخالد . وقد تتوارى حينا وتهجع لأنه متشبهة بالشمس عندما يجىء الليل وبالقمر عند مجىء الصباح . (١)

— ٥ —

والبحر من الظواهر الطبيعية التى اعتقد بعض المهجريين أنها أصل الوجود ، وقد خاطب أبو ماضى البحر فى قصيدته الطلاسم ووازن بينه وبين نفسه ورأى أن البحر يبقى وهو يفنى برغم أنه يمتلك ما لا يمتلكه البحر من الظل والعقل . وهو يلتقى مع نعيمه وجبران فى تصورهما له بصفته ظاهرة وجودية كبرى لكنه لا يصل إلى ما يقترب من اليقين الذى وصل إليه نعيمه من أن البحر هو سر الوجود منه البدء وإليه النهاية وكذلك جبران ولعل تصورهما هذا مستمد من النظرة الفلسفية القديمة التى تقول إن أصل العالم الماء . (٢)

أو أنهما متأثران بالكتب السماوية وفيها ما يوحى بهذه الفكرة .

* *

وامتدادا للبحث عن حقيقة الوجود يتفق جبران مع داروين فى نظريته " النشوء والإرتقاء وهى نظرية تنادى بتطور الحياة وأن أصلها واحد .. وكان الإنسان هو قمة هذا التطور وصورته

(١) جبران : عرائس المروج ص ٩

(٢) أنظر قصيدة نعيمه : نهر يغنى بديوانه همس الجفون ص ١٣٠ وقصيدة جبران البحر ص ١٠٤ بكتابه البدائع والطرائف .

المثلى . وقد ظل داروين من عام ١٨٣١ إلى عام ١٨٥٩ – يتجول على ظهر الباخرة بيجل " حول العالم يجمع الملاحظات وقد رأى أن الحياة تتلون وتتكيف وتغير من تكوينها لتتلاءم مع بيئتها على الدوام .

وقد اعتقد بأن الحياة فى أصلها ذات أب واحد انحدرت عنه كل الأنواع واختلفت لاختلاف بيئاتها .

وقد لقيت هذه النظرية إنكارا ثم قبولا من الأوساط العلمية ولكنها مالبثت أن خفت بريقها فهى مجرد احتمال أو فرض . لا يصل إلى درجة اليقين لأنها لا تعترف إلا بالعنصر المادى وأنكرت " أى تدخل من خارج وأى يد هادية مرشدة ، تقود الحياة وتهديها فى رحلة ملايين السنين . وقالت إنه لا شىء يقود الحياة العمياء سوى مصلحتها الحياتية فى أن تبقى .. وها نحن نرى أن هذا غير صحيح .. وأن النسيج الحى يشف فى كل تفاصيله عن هذه اليد الهادية للخالق المبدع القادر على كل شىء . خالق الأزل الذى يخلق للخلق ويجمل للجمال .(١)

ويبدى جبران وجهة نظره فى تأييد هذه الفكرة حيث أن التطور فى رأيه يكون فى قيم الحياه ومبادئها فهى تتطور من الحسن إلى الأحسن . يقول :

" أنا من القائلين بسنة النشوء والارتقاء . وفى عرفى أن هذه السنة تتناول بقائليها الكيانات المعنوية بتناولها الكائنات المحسوسة فتنتقل بالأديان والحكومات من الحسن إلى الأحسن انتقالها بالمخلوقات كافة من المناسب إلى الأنسب .

– ٦ –

وقد يتسامى بعضهم فى نظرته للوجود . ويحب الوجود لذات الوجود بعيدا عن أى غرض لأن الأغراض تجعل الإنسان ضعيفا أمام الزمن وقد أفصح عن هذا المعتقد الشاعر إيليا أبو ماضى .

فهو يؤمن بالوجود المطلق المجرد من كل رغبة وعلة . فالرغبات هي التى قهرت الورى وأذلته يقول :

قهر الورى وأذلهم أن الورى ... متعلل أو طابع أو مجتدى
جعلوا رغائبهم قياس زمانهم ... والدهر أكبر أن يقاس بمقصد
وقتلت فى نفسى الرغائب والمنى ... فقهرته بتجردى وتزهدى (٢)

(١) د / مصطفى محمود : لغز الحياة ص ٨٨ .
(٢) أبو ماضى : الجداول ص ٧٩ .

وحينما يقهر أبو ماضى الزمان بتجرده وزهده وسمو نفسه ينطلق من أسر الجسد محلقا بجناحين خفيفين فى دنيا المطلق باحثا عن سر الذات المتوحد لينوب فى لهيبها المقدس .. يذكرنا هذا الوجد الصوفى بقول جلال الدين الرومى وهو ينأى بنفسه عن عالم المادة ويهمس فى عمق .

يا عجبا أنا عنـد نفســـى مجهـــول
فبـالله مـــاذا أفعـــــل الآن ؟
لا أعظـــم الصلـــيب ، ولا الهـــلال
ولســـت مجـــوسيًا ، ولا يهـــوديا

* * *

فـــى مكـــان مـــن وراء المكـــان فـــى محـرم حيـث لا ظـــل للـــطراق
تـنـزهـــت روحـــى واستـعـلـــت فعشت فى روح محبوبى الواحد من جديد(١)

- ٧ -

الحيرة الكونية الشاملة أمام مسلمات الوجود وطلاسمه :

- وهذه الحيرة تمثلت فى نتاج أبى ماضى ونسيب عريضه وفوزى المعلوف فالثلاثة يشتركون فى شعور واحد ويجمعهم نسيج واحد هو " الحيرة والبحث عن الحقيقة " إلا أن أبا الماضى أنقذ نفسه باللاأدرية ، وقد يكون هذا منه تجاهل العارف وفوزى عذب نفسه وكواها بنار النقمة على هذا الوجود وانتهى إلى طريقه المسدود وهو الرفض وعدم القدرة على مجابهة الواقع ومسايرة الحياة .

- أما نسيب عريضه فأستطيع أن أقول أنه الحائر الذى لم ينج بنفسه من الحيرة بل ظل غارقا فيها يتساءل إلى أن يصير ترابا ودودا، لكنه يتلاقى مع فوزى المعلوف فى تشاؤمه المفرط وظروف حياته الصعبة ، والصدمات المتوالية أثرت فى نفسية الشاعر الرقيق فانطبع مزاجه بالتشاؤم وطفح أدبه بالشكوى من الحياة (٢)

- وفى ديوانه الأرواح الحائرة الذى يجمع نحو خمس وتسعين قصيدة " ٩٥ " نرى كلا منها خطوطا بارزة لصورة نفسه الحائرة المتشككة الباحثة عن الكمال والمعرفة خلف حجب

(١) أ . ر نيكلسون : الصوفية فى الإسلام ص ١٥١ .
(٢) جورج صيدح : أدبنا وأدباؤنا ص ٥٩٦ .

الحياة والوجود ، وعن السعادة الكبرى فى الاتصال الروحى ولذلك نجد نسيبا دائم البحث عن نفسه وفى زواياها ليهتدى إلى خفايا الوجود الأعظم . (١)

وموقف نسيب من الوجود مرتبط بنفسيته التى أمطرتها السنون بالنوائب ففجع بأخيه " سابا " ثم بأخته " ليويا " وأصبح كالغريق فى لجة الأحزان يستغيث بالحيرة طورا ، ويتعلق بالفلسفة وسيلة للنجاة فتخونه الحيلة فى تفسير التفاوت فى حظوظ البشر ، والخلل الدائم الظاهرى فى نظام الحياة ، وعجز عن فهم حكمة الخالق فى تعذيب خلائقه فاستحوذت عليه وأصبح شاعرها الأول وقد عاش فى حالة حرب دائمة بين كيانه الظاهرى وكيانه الخفى لا تخمد نارها من جانب طريقه حتى تشتعل فى جانب ، وهو يحترق ويصيح :

لمـــــاذا وقفـــــت بخـــــوف وحيـــره
أيـــــــا نفســـــى عنـــد الطريق العسيره
ألا امشى فإن الحياة قصيرة .. الا امشـــى (٢)

وهو من أولئك المجاهدين الذين نزحوا إلى العالم الجديد يجاهدون فى سبيل الحياة وفي قسوة تلك المجالدة مالا يترك لهم راحة ولا سبيل إلى الأخذ من لذات الوجود بنصيب .(٣) وإيليا أبو ماضى وهو مازال فى سنى حياته الأولى بدأ يتساءل عن أمور الوجود ومسلماته كيف صار ؟ كيف يمضى ؟ كيف يجىء ؟

ثم يتساءل لماذا جئنا إذا كان الفناء مصيرنا . وإذا كان الخلود في الآخرة فلماذا الموت وما معناه ؟

وأخيرا يسلم الشاعر بكل شىء .. ففكره قاصر عن إدراك أبعاد الجواب يقول :

أفكـــر كيـف جئـت وكيـف أمضـــى ... على رغمـى فـأعيـا بالـجـــواب
أتـيـتُ ولـــم أكـــن أدرى مجيـــنى ... وأذهـــب غـيـر دارٍ بـالإيـــــاب
إذا كـــان المصـير إلـــى خلـــودٍ ... فمـــا معنـــى المنيـة والتبـــاب
أمـــور لا يـحـيـط بـهـنَّ فكـــرٌ ... ولـــو أمســـى يحيـط بكـل بـــاب

ولاشك أن هذا الشعر لإيليا أبى ماضى يعطينا مفتاحا لشخصية هذا الشاعر وهي أر

(١) الناعورى : أدب المهجر ص ٣١٥ .
(٢) جورج صيدح أدبنا وأدباؤنا ص ٢١٩ .
(٣) د / محمد مندور : فى الميزان الجديد ص ٨٢ .

التأمل فطرة فى قريحته ، وأن هذه الأبيات إرهاص للعمل الأدبى الضخم " الطلاسم " ويدلنا هذا الشعر أيضا على أن الطلاسم التى نشرت بعد عشر سنوات لم تكن نتيجة الإيحاء الخارجى بل وليدة تأملاته الشخصية .(١)

وينتقل أبو ماضى عام ألف وتسعمائة وستة عشر (١٩١٦) إلى نيويورك ويتعرف بجبران ويصدر الجزء الثانى من ديوانه . وتأسر جبران نظرات أبى ماضى ويسحره شعره ، فيكتب مقدمة الديوان ويقول فيهامشيرا إلى نزعة أبى ماضى التأملية فى الوجود ، وخفايا الكون . ؛ في ديوان أبى ماضى سلالم بين المنظور وغير المنظور وحبال تربط – مظاهر الحياة بخفاياها ، وكؤوس تملأه بتلك الخمرة إن لم ترشفها تظل ظمآن حتى تمل الالهة البشر فتغمرهم ثانية بالطوفان " .

وفى ذلك أبلغ رد على قول عبد المسيح حداد فى كتابه " انطباعات مغترب عن إيليا أبى ماضى أنه شاعر مقل تعلم الشعر الصحيح من ميخائيل نعيمه .

والذى يزود شعر أبى ماضى بعناصر الحيوية والتأثير هو أن شعره ينبع من قلبه وأنه معبر عن عاطفة أو فكرة يشعر بها كل انسان . (٢)

– وفكرة الوجود الزمنى عند إيليا متناقضة نتيجة لحيرته الشديدة وعجزه عن تفسير طلاسم الوجود فهو يتناقض فى موقفه من الغد والأمس فهو يخاطب الطائر " – الفيلسوف المجنح . وهو ظله الطائر الذى ضيع إلفه والشاعر لم يجده بعد ، يخاطب هذا الطائر قائلا :

طوبـــاك إنـــك تفكـــر فـــى غـــــد بـــدء الكـــآبة أن تفكـــر فـــى غـــد (٣)

وبعد ما يجاوز الشاعر مرحلة الشباب ويقتحم الغد الذى صار حاضرا وأمسا ويحس بالاقتراب من النهاية يقول لمن يسأله عن أمس الذى كان غدا قبل ذلك .

يا سائلـــى عـــن أمـــس كيـــف انقضـــى دعـــه وسلنـــــى يـا أخـــى عـن غـــد
أروح للنفـــــس وأهنـــالـــهـــــــا أن تحســـب المـاضـــىَ لـــم يولَـدِ (٤)

وهو فى ديوان الجداول .. يبدأ من منطق الوحدة الكونية الشاملة ، والمقاييس الزمانية وهم لا يقره ذوو النهى المفكره المتأملة يقول :

(١) جورج صيدح : أدبنا وأدباؤنا ص ٢٧٦ .
(٢) الناعورى : أدب المهجر ص ٣٨٧ .
(٣) أبو ماضى : الخمائل ص ١٦ .
(٤) أبو ماضى : الجداول ص ٥١ .

هيهات ما أرجو ولا أخشى غدا ... هل أرتجى وأخاف مالم يوجد ؟
والأمس فىَّ فكيف أحسبه انتهى ... أفما رأيت الأصل في الفرع الندى ؟
قَبْلٌ كبَعْدٍ حالةٌ وهميةٌ ... أمس أنا يومى أنا وأنا غدى (١)

- والطبيعة أداة تحت تصرف عبقرية الشاعر وهو يعالج فكرة الوجود الزمنى وهو فى موقفه هذا يمثل الارتداد العكسى بمعنى أن موقفه فى قصيدة " الزمان " فى الجداول يأتى فى قمة النضج ثم يضعف هذا النضج فى ديوانه " الخمائل " فى قصيدة " الفيلسوف المجنح ".

ويقترب من الضحالة والتسليم الساذج فى نهاية المطاف فى ديوانه تبروتراب . حينما يقول فى قصيدته " أين عصر الصبا " .

أروح للنفس وأهنالها ... أن تحسب الماضى لم يولَدِ

- وفوزى المعلوف فى شعلة العذاب " المطولة التى لم يستطع أن يتمها رأيناه يناقش فيها المشكلات الكونية وجها لوجه بعد أن نمت قوة التساؤل عنده ولم يلق فى بساط الريح " إجابات شافية ولم تكن كافية لاستنفاد كل ما فى نفسه من إحساس بعبثية الوجود وألم الحياة . فأنشأ هذه المطولة ولكنه قضى وخلف النشيد السابع مشنوق النغم على حنجرة الأبدية الخرساء ، بعد أن خط بيتين فقط .

وقال شقيقه " رياض المعلوف " فى ختام المخطوطة التى أرسلها إلىّ لهذه الملحمة " هذان البيتان بدأ الشاعر بهما النشيد السابع ، ولم يتسن له اتمامه فهو اذا آخر ماوجد منه بخطه . وتبا للموت الذى حرم الشعر والملحمة من إكمال هذا النشيد الذى فيه شىء من التشاؤم الذى يدل على إحساس عفوى للشاعر بدنو أجله " والبيتان هما :

مرحبا بالعذاب يلتهم العيش ... التهاما وينهش القلب نهشا
مشبعا نَهْمة إلى الدم حَرَّى ... ناقعا غلة إلى الدم عطشى (٢)

---

(١) أبو ماضى : الجداول ص ٥١ .
(٢) فوزى المعلوف : شعلة الذاب ص ٤ " مخطوطة " .

والملحمة تتكون من سبعة أناشيد هى :

١ - لغز الوجود	١٤ " أربعة عشر بيتا" .
٢ - فى هيكل الذكرى	١٤ " أربعة عشر بيتا" .
٣ - بين المهد واللحد	١٤ " أربعة عشر بيتا" .
٤ - يوم مولدى	١٤ " أربعة عشر بيتا" .
٥ - بسمات	١٤ " أربعة عشر بيتا" .
٦ - دموع	١٤ " أربعة عشر بيتا" .
٧ - العذاب	٢ " بيتان فقط " .

وقال فرنسيس كفيلا سباسيا أمير شعراء الأسبان عن هذه الملحمة ، ومثل هذا الكتاب يكفى وحده لإحياء ذكر الشاعر المتفوق الخالد لأن الصوت البشرى قلما تحدى الألحان الالهية بوضوح أتم من الوضوح الذى تحدتها به هذه القوافى الساحرة . وهذا لعمرى الشعر الخالد بعينه . (١)

والنشيد الأول بعنوان " لغز الوجود " وفيه يتكلم عن تناقضات هذا الوجود وأسراره وتسرى نظرته المتشائمة فى شرايين النشيد وروح أبى ماضى تسرى فى تساؤلاته . لكن روحه المتفائلة لا تمس روح فوزى أبدا يقول :

برعم الزهر ما وجدت لتبقى ... بل ليمضى بك الخريف
هذه حالنا خلقنا لنشقى ... ولتقضى بنا الحتوف

* * *

كيف جئنا الدنيا ومن أين جئنا ... والى أى عالم سوف نقضى
هل حيينا قبل الوجود وهل نُبْ ... عث بعد الردى وفى أى أرض ؟
هو كنه الحياة مازال سرا ... كل حكم فيه يؤول لنقض
كيف أجلو غدى وأدرك أمسى ... وأنا حرت كيف يومى سيمضى (٢)

(١) شعلة العذاب : المقدمة ص (١) .
(٢) السابق ص (١) .

والشعور العام فى هذا النشيد هو شعور النكد والأسى من لغز الوجود المحدق بالعقل ، فكأن العقل أداة مخنولة ، مرنولة ، يتجول فى فسحة يسيرة من الضوء على ظلمة مدلهمة لا حد لها . (١)

والشاعر فى حيرته المتفاقمة يذكرنا بنسيب عريضه فهو حائر كيف يكتشف الغد " النبوءة . ويدرك الأمس - الذكرى - وهو لا يدرى كنه يومه - الواقع - " ويحاول أن يتعزى عن حيرته بأنه كان حيا من قبل بجدوده وسيحيا فيما بعد بأولاده وأنه بخاصة سيخلد بعد الموت بشعره " (٢) حيث يقول :

قد حيينا قبل الولادة لكن ... بجدود قضوا كما سوف نقضى
وسنحيا بعد الردى ببنينا ... فى كيان نعطيه بعضا لبعض
إننى شاعر بروحى فوق الـ ... ـموت تمشى بكل حبى وبغضى
أيه يا موت لن تمس خلودى ... فاقض ما شئت لست وحدك تقضى
فأنا خالد بشعرى على رغـ ... ـم زمان من قيمة الشعر يغضى (٣)

وهو غالبا ما يناقش القضايا الكونية من داخله فهو يقدم أولا لحياته الأليمة ثم يتبعها بذكر الألم المرافق لكل إنسان حى من المهد إلى اللحد .

والوجود عنده كما قال أبو العلاء قديما " تعب كلها الحياة " .

- وفى ديوان : الجداول" نقرأ " الطلاسم " وفيها حيرة أبى ماضى ودهشته أمام متناقضات الوجود فقد صب فى هذه المطولة ثوب وجدانه وخلاصة تجاربه التى ظهرت فى عديد من قصائده السابقة " . ومشاق رحلته الطويلة عبر آفاق الوجود .

وهل وصل إلى شاطىء المجهول ؟ لا لم يصل !

إنه يقول فى النهاية : لست أدرى .

وهذه المطولة هى مجموعة تأملات متطلعة للبحث عن الحقيقة يرسلها لا يقنع بالوقوف

---

(١) إيليا حاوى : فوزى المعلوف ص ٥١ .
(٢) د / أنس داود التجديد فى شعر المهجر ص ٤٢٤ .
(٣) فوزى المعلوف : شعلة العذاب . لغز الوجود ص (١) .

عند الظواهر والقشور بل يحاول التغلغل إلى الأعماق . (١)

والشاعر فى بداية القصيدة التى يبلغ عدد مقاطعها واحدا وسبعين مقطعا يطرح حقيقة هامة وهى عدم معرفته لسر وجوده ومن أين وجد ؟ وهو يقر بأنه ريشة فى مهب القدر يحركه كيف يشاء يقول :

جئـــت لا أعلـــم مـــن أيـــن ولكنـى أتيت
ولقـــد أبصـــرت قـــدامى طريقـــا فمشيت
وسابقـــى ســـائرا إن شـــئت هـذا أم أبيت
كيف جئت ؟ كيف أبصرت طريقى ؟ .. لست أدرى (٢)

من أول مقطع يعلن الشاعر عقيدته التى تسلم للقدر بكل شىء فهو إن شاء أم أبى سيسير وهذا يذكرنا بموقف " الجبرية فى الفلسفة الإسلامية الذين يقولون إن الإنسان ريشة فى مهب الرياح .

والشاعر يتساءل عن كل ما سبق بحيرة يخنقها اليأس والظلام الحالك ولكنه لا يجد الجواب عن شىء عن أسئلته عند نفسه فيهتف .

ألهـــذا اللغـــز حـــل ؟ أم سيبقـــى أبديـــا ؟
لســـت أدرى .. ولماذا لـــست أدرى ؟ لست أدرى ؟ (٣)

وتوغل أبو ماضى فى تصوير الحيرة بصورة مفزعة مقلقة ، وبدلا من أن يثير بقصيدته الفكر والعاطفة ، فإنه يشلهما لأن القصيدة تنقل معانى العجز مكبرة مهولة ، وتقلب الإنسان الى دودة عمياء لا تعرف أين المبدأ والمنتهى ولا تدرك شيئا مما حولهما .. وتفقدنا الثقة فى النظام الكونى . وفى أنفسنا ، وتجلب الحجارة التى كانت بعيدة عن طريقنا ، فتطرحها فيها لنعثر بها وتطلب إلينا أن لا نحاول رفعها أو إزاحتها . لأنه لا جدوى من ذلك . (٤)

ويعتقد الشاعر أن البحر لديه الجواب .. كظاهرة كونية هائلة ولكن أمواجه تسخر منه

---

(١) عيسى الناعورى أدب المهجر ص ٢٨٢ .
(٢) أبو ماضى الجداول ص ١٠٦ .
(٣) أبو ماضى الجداول ص ١٠٧ .
(٤) د / إحسان عباس ومحمد يوسف نجم : الشعر العربى فى المهجر ص ١٧٠ .

وتضحك ثم يتمرد الشاعر ، على غير عادته " ويقارن بينه وبين البحر فيرى أنه أعظم من البحر فهو له فى الأرض ظل وله عقل يفكر به وفيه الحس . ويرتاد به طريق الحياة والبحر يخلو من هذه الميزات وبرغم ذلك يبقى البحر ويفنى الشاعر الإنسان ولا ينعم بهذا الوجود كيف ذلك ؟ لا يدرى شاعرنا فيقول :

فيـــك مثـــلى أيهـــا الجبـــار أصـــداف ورمل
إنمـــا أنـــت بـــلا ظلٍّ . ولـــى فى الأرض ظل
إنمـــا انت بلا عـــقل ولـــى يابحـــر عقـــل
فلمـــاذا يا ترى أمضى .. وتبقى .. لست أدرى . (١)

ويلتقى أبو ماضى مع نعيمه وجبران فى تصورهما للبحر بصفته ظاهرة وجودية كبرى لكنه لا يصل إلى اليقين الذى وصل إليه نعيمه من أن البحر هو سر الوجود منه البدء وإليه النهاية . وكذلك جبران . ولعل يقينهما هذا مستمد من النظرة الفلسفية القديمة التى تقول إن أصل العالم المادة . (٢) .. أو أنهما متأثران بالكتب السماوية وفيها ما يوحى بهذه الفكرة .

وهو يناقض نفسه فى المقطع الثانى وكثيرا ما نلمح هذا التناقض الفكرى فى القصيدة " الطلاسم " فهو " يقرر الفرق بينه وبين الطبيعة وأنه يتمتع بالعقل – وهذا نوع من المعرفة وبعد ذلك يعود إلى الفكرة نفسها فيقول :

فـــىٌ مثـــل البحـــر أصـــداف ورمـــل ورَمْل
فـــىٌ كالـــروض مـــروجٌ وسفـــوحٌ وجبـــال
فـــىٌ كالجـــو نجـــوم وغيـــومٌ وظـــلال
هـــل أنا أرض وبحـــر وسمـــاء ؟ لست أدرى

فيعود بهذا إلى التشكيك فى ذاته مع أنه من قبل قد عرف أنها ذات عاقلة (٣).. وحين لا يجد عند البحر جوابا لأسئلته يمده ولو ببصيص من النور الذى ينشده يتركه ويمضى إلى الدير

---

(١) أبو ماضى : الجداول ص ١٠٨ .
(٢) أنظر قصيدة نعيمه نهر يغنى بديوانه " همس الجفون ص ١٣٠ وقصيده جبران " البحر ص ١٠٤ بكتابه : البدائع الطرائف .
(٣) د / إحسان عباس ومحمد يوسف نجم . الشعر العربى فى المهجر ص ١٦٩ .

معتقد أن من فيه لديهم سر الوجود وكنوز الحكمة وأبواب المعرفة ولكنه خاب مسعاه حين لم يجد الجواب :

قـــد دخلـــت الديـــر استنطـق فيه الناسكينا
فـــاذا القـــوم مـــن الحيـــرة مثلى باهتونا
غلـــب الـــيأس عليهـــم فهـــمُ مستسلمـونا
واذا بالبـــاب مكتـــوب علـــيه ... لست أدرى (١)

وهو يوحى من بعيد فى المقطع السابق بقصر . إدراك رجال الدين وفشل الرهبانية أو حياة التنسك فى الوصول إلى ما يروى جفاف الروح المتطلعة للحقيقة وتتحرك فى نفسه أشواق المعرفة إلى سر الوجود ويفقد الأمل فى الأحياء فيذهب إلى الأموات فى المقابر ويواجه نفسه القاسية وهنا تقر نفسه بأنها لا تدرى شيئا ولا تستطيع الإجابة .

– والحقيقة أن أبا ماضى يعرف الإجابة إلا أنه يوهمنا بالجهل ويلقى أسئلة ضخمة ليوقعنا فى حيرة معه . وينسى منهجه التساؤلى وتجاهله فيقول مركزا على حقائق ثابتة :

انظـــرى كيـــف تســـاوى الكل فى هذا الكانْ
وتلاشـــى فـــى بقـــايا العبـد رب الصولجانْ
والتقـــى العـــاشق والقـــالى فمـــا يفترقانْ
أفهذا .. منتهى العـدل فقـــالت .. لســـت أدرى (٢)

ويعود الشاعر والحيرة هى . هى لا تنقشع . والأسئلة هى . هى . لا تلقى جوابا ويتجه الشاعر الى أرباب الغنى ويسائل القصر وهو يضنى عقله وينفق أيامه وأفكاره فى رحلته الطويلة ولكنه لا يلقى جوابا .

فينصرف إلى المقابلة بين القصر والكوخ فلا يجد فى الحقيقة فرقا بينهما ولا شك أنها نظرة كلية شاملة .

أو ليس صاحب هذا وصاحب ذاك يشتركان فى كل الصفات والمزايا العامة ؟ألا يتقلب على كليهما الليل والنهار ويساور نفسيهما الشك واليقين ، والغضب والرضى، والرجـــاء والخشيـــة ؟

---

(١) أبو ماضى : الجداول ص ١١١ .
(٢) السابق ص ١١٥ .

إذا فكل ما بينهما من فوارق إنما هو وليد الأوهام البشرية السخيفة . أما الطبيعة الأم فلا تعرف هذه الفروق لأن كل المخلوقات فى عينها سواء.

سـائل الفَجْـرَ . أعنـد الفجـر طينٌ ورخامْ؟
وأسـأل القـصـر . ألا يخفيـه كالكوخ الظلامْ؟
واسـأل الأنجـم والـريح وسـل صَوْب الغمامْ
أتـرى الشيء كما نحن نراه ؟ .. لست أدرى (١)

وبعد أن يبلغ الشاعر الحيرة وهو غارق فى لجة الوجود ، لا يصل إلى حقيقة يتفق عليها البشر ، وإن اتفقوا عليها فلن تتفق معها الظواهر الكونية ولن تراها كما نراها نحن .

بعد هذا ينصرف إلى مظهر معنوى من مظاهر الوجود بل والسر فى بقائه .

يتساءل عن مصدر الأفكار والخواطر التى تعتلج فى عقول البشر وضمائرهم فلا يجد جوابا – ويرى ما يقوم فى نفسه من صراع بين الخير والشر أو بين الملاك والشيطان كما يقول وما يدفع إليه كل منهما من لذة أو عفة . من سعادة أو من شقاء من اشتهاء أو كراهية من حب أو بغض من حسن أو قبح .

والشاعر هنا يؤمن بالثنائية ويقر الازدواج متأثرا بنعيمه فى قصيدته الشيطان والملاك . على الرغم من أنه حاول تحطيمها فى الأسطورة الأزلية وهو يقابل بين المظاهر السابقة جميعا ولكنه لا يَهتْدى من مقابلاته إلى شيء يبدد حيرته لأن مافى وجوده " طلاسم " يعجز العقل عن الوصول إلى كنهها وتفسير رموزها وحين يمل الشاعر وتسأم نفسه التساؤل حين لا يقع على شيء من الحقيقة التى أجهد نفسه بَحْثاً عنها ..

وقد بحث عن سر الوجود فى مظاهره كله فلم يجده ، ولو تصورنا كائنا حيا وأبو ماضى يريد أن يسأل عن حقيقته نراه أولا يجهل كيف التقى به ولكن مصاحبته قدر مفروض عليه ، هذا الكائن " الطبيعة ثيابه ، والدين روحه والمادة جسده ، والفكر عقله ، الذى به يواصل رحلة البقاء ، والموت نهايةُ رحلته .

وفتش شاعرنا فى ثياب هذا الكائن الوجودى فلم يعثر على الحقيقة فعبث بجسده ، وتغلغلت يداه فيه فمالمست سوى الطين وتاه عن الجوهر ، ولم يأخذ من البحر غير الأصداف ،

(١) السابق ص ١١٨ .

فهدأ قليلا ، واستردّ أنفاسه اللا هثة.

وأمسك بعقله وساعده ، ولكن الفكر لم يسعفه بل زاده حيرة وشكا فلجأ إلى الروح فهى رمز الخلود ، وتوسل إليها أن تهديه إلى حقيقة هذا الكائن ولكن الدين الذى يكمن فى الدير لم يزح عنه كابوس التساؤل واعتقد أن الحقيقة هناك فى الفناء فى نهاية هذا الكائن . فتصور أنه مات . وهرول بين القبور يفتش عن سره ولكن هيهات ! يعود المسافر إلى نقطة البداية ، يعود لنفسه وحقائبه خالية من كل شىء ذاكرته ، مؤودة أحلامه ، مبعثرة أيامه ، مذبوحة أوهامه فيهتف واليأس يعربد فى داخله .

أنـــا لا أذكـــر شيـئـــا ... مـــن حياتـــى الماضيـــة
أنـــا لا أعـــرف شيئـــا ... عـــن حياتـــى الآتيـــة
لـــى ذات غيـــر أنـــى ... لســـت أدرى مـــاهيـــه
فمتـــى تعلـــم ذاتـــى ... كُـــنْـــة ذاتى .. لســـت أدرى (١)

* *

ويجد الشاعر نفسه محبوسا فى إطار المجهول والغربة والنفى فهو لا يعلم أى شىء عن أى شىء فهو لغز ، والوجود لغز ، والذى أوجد هذا اللغز أعظم فلا جدوى من التساؤلات ، ونشدان المعرفة فالعاقل هو من يعلن اللا أدرية شعارا دائما .

إنـــى جئـــت وأمـضـــى ... وأنـــا لا أعلـــم
أنـــا لـغـــز وذهـــابـــى ... كمجيئـــى طلســـم
والـــذى أوجـــد هـــذا ... اللغـــز ســـر مُبْـــهم
لا تجـــادل : ذو الحجـــى مَـــنْ ... قـــال إنـــى لســـت أدرى (٢)

* *

ويذكر د / أبو شادى أن أبا ماضى أخذ معانى ملحمته " الطلاسم من الشعراء إدجار ألان بو " ، روبرت جرين الأمريكيين . (٣)

(١) أبو ماضى : الجداول ص ١٢٥ .
(٢) أبو ماضى : الجداول ص ١٢٦ .
(٣) د / خفاجى : قصة الأدب المهجرى ص ٢١١ .

ويذكر أبو شادى تعليقا على قصيدة " الطلاسم " ولا نعرف صدى لأسئلة الملايين من قبل ، ولأسئلة العديدين من الشعراء وعلى رأسهم عمر الخيام وحافظ الشيرازى والمعرى والزهاوى فى الشرق وكلهم من المتشككين . (١)

ويذكر د/ حسن جاد " أن فيها أسئلة حائرة من مشكلات الوجود ومفارقات الحياة يرى البعض أنها أكبر من أن يحاول مثل أبى ماضى البحث فيها ، فليس وراء المحاولة والتساؤل إلا الشقاء والعناء ويرى البعض أنه يدين بعقيدة اللاأدرية التى تسود القصيدة وبعضهم يرى أن ايليا كان ساذجا – وقف مبهورا حائرا أمام حقائق الوجود .

وبعض الناس يرى أنه يتجاهل تجاهل العارف ويحمى طلاسمه بكل هذه اللاأدريات .(٢)

ويذكر رأيه فى هذه التساؤلات فيقول متفقا مع أبى شادى إن هذه الأسئلة كان بعضها فعلا أكبر من أبى ماضى ، كما كان أكبر من غيره وأن لغز الوجود أعيا من قبله عقول الفلاسفة والمفكرين كما أعياه وكل سؤال يتجه إلى هذا اللغز لا يظفر بغير صداه الحائر . "

" لا تجادل : ذو الحجى من قال إنى لست أدرى .. (٣) ويرى عزيز أباظة :

أن إيليا أبى ماضى وقع فى مغالطات فكرية فى طلاسمه وقال لقد انسرب خيال الشاعر فى أودية الظنون ، وعلل الموت بتعللات لا يجد العقل المؤمن لها مساغا ، وتناسى أن الموت تشذيب لشجرة الإنسانية فلا فضل للدعارة ولا ذنب للطهارة وإنما هى نهاية البشرية ما صلح منها أو طلح . (٤)

وأرى أن أبا ماضى لم يتبع فى مذهبه خطا فكريا له معالمه المحددة بحيث نستطيع أن نقول إن مذهبه ديكارتى أو وجودى ولكنها إنفعالات طارئة يحسها الشاعر من آن لآخر ويعبر عنها بصدق الشاعر وإحساس الفنان .

---

(١) د / محمد خفاجى : قصة الأدب المهجرى ص ٢١٣ .
(٢) د / حسن جاد : الأدب العربى فى المهجر ص ٢١٩ .
(٣) د / حسن جاد : الأدب العربى فى المهجر ص ٢١٩ .
(٤) محمد عبد الغنى حسن الشعر العربى فى المهجر " مقدمته الكتاب ص ١٤ .

- ٨ -

الثورة على الوجود ورفضه والبحث عن عوالم غير منظورة طلبا للأمان :

- وهذه الثورة نشأت من الإحساس باستعباد الوجود للذات الإنسانية كما أوضح ذلك فوزى المعلوف فى مطولته على بساط الريح .

- أو أنها نشأت من الإحساس بما فى العالم الخارجى من زيف وضباب وبريق وغيم كما هو عند نسيب عريضه .

- أو أنها تتصل بإحساس الشاعر بتفاهة هذا العالم والبحث عن بلاد محجوبة فيها كل ما ينشده الإنسان من معان وقيم وأمان وهدوء ، ومحبه وصفاء ، وتجدد دائم كما فى البلاد المحجوبة التى ظل جبران يبحث عنها ، والعنقاء عند أبى ماضى وكذلك نار القرى صورتان لهذا العالم المفقود المثالى المقابل للوجود المشاهد المزيف .

وأطال نسيب عريضه التأمل والبحث وقاده هذه التأمل فى الوجود الخارجى إلى اكتشاف عالم غير منظورحواليه ، وأن هذا العالم الخارجى زيف وضباب وبريق وغيم ويعد هذا تحولا خطيرا فى موقف نسيب الوجودى .

فمن قبل كان يعترض على مسلمات الأمور ، وينقب عن أسرار ما يجرى أمامه . والآن يدخل عالمه الجديد الذى تخيله ضوءا بعيدا فى معلقته على طريق ارم " وبعد سفره الطويل إلى ضالته المنشودة " إرم " يهتف وهويرى شعاعا من اليقين ينأى عنه كلما اقترب كالأفق الخادع .

إيـــه ضـوئـــى البعيـــد ... لُـــحْ ولُـــحْ مـــا تـريـــدْ
ليـــس طـــرفـــى يحيـــد ... عَـنْـــك حَـتـــىَّ يـعَـــودْ

وبقراءة رحلة نسيب الروحيَّة ، على طريق إرم " نجد الشاعر وقافلته يمرون ببضع مراحل . بحثا عن الحق أو المجهول ، ويصف طريقة ، مرحلة ، حتى يتخيل أنه رأى نارها من بعيد ، دون أن يصل إلى الهدف .

لقد عد أحد النقاد هذه الملحمة لنسيب عريضه ، لو اتبعناها تقودنا الى المراحل المختلفة التى مر بها الشاعر فى حيرته . (١)

(١) د / نادرة السراج : نسيب عريضه ص ٩٦ .

والملحمة تتكون من مائتين وستة وثلاثين بيتا مقسمة إلى ست مقطوعات أعطى الشاعر لكل منها عنوانا يوضح المرحلة التى يصفها ويتبعها . (١)

وفى هذه الملحمة أصداء من الثقافة الروسية التى تلقنها نسيب فى بداية حياته وقد ظهرت هذه الثقافة فى ترجماته العديدة لقصائد كثيرة لعدد من الشعراء الروس الروحيين بمجلة الفنون " ومنهم الشاعر " سولوغوب " – والشاعر " لرمنتوف " والشاعر همتو تسيف " وهم من المؤمنين بعالم الأحلام . والفناء والاتحاد بين الروح والجسم وعاشوا فى صراع مع الواقع الأليم فبينهم وبين نسيب علاقة روحية متسامية عميقة وملحمة " على طريق إرم " تشبه فى الأدب الفارسى ملحمة " منطق الطير " لأبى حامد محمد . بن أبى بكر ابراهيم ، المشهور بفريد الدين العطار . كبير شعراء الصوفية فى القرن السادس وأوائل القرن السابع الهجرى .

ومنطلق الطير " منظومة فى ألف وستمائة بيت من الشعر الرمزى الصوفى يبدأ بمقدمة فى توحيد الله ، ومدح الخلفاء الأربعة وإنكار التعصب ، وبعد ذلك يتحدث بلسان الطيور عن رحلتها فى طلب الطائر الأسطورى المسمى بالفارسية سيمرغ ، وهو يقابل العنقاء " معنى لفظ سيمرغ : ثلاثون طائرا ، إذْ هو مركب من "س" ثلاثون ، ومرغ " طائر "وهو هنا رمز " الله " (٢)

ومن هذه الملحمة أقتطف هذه الأبيات التى تصور مثول الطير بين يدى الحضرة الإلهية " حينما تطهرت كلية من كل شىء .. وجدت جميعا أرواحها من نور " الحضرة الإلاهية .

وأضحت مرة أخرى . أسرى الروح الجديدة
فصارت حيارى من جانب آخر
فرأى عنها ما فعلت ومالم تفعل
فقد زال وامحى من صدورها
وبرزت أمامها شمس القربى
فولت وجوهها جميعا شطر ذلك الضياء
وحين توجهت نحو " السيمرغ " الله "
كان هو نفسه تلك الحضره
وكلما توجهت بأنظارها الى ذات أنفسها
كان "سمرغها " ربها " ذاك الواحد الآخر (٣)

(١) أنظر تحليل الملحمة بالمصدر السابق ص ٩٦ – ١٠٦ .
(٢) أنظر تفاصيل هذه الملحمة فى كتاب " مختارات من الشعر الفارسى للدكتور محمد غنيمى هلال من ٣٨١ – ٤١٧
(٣) د / محمد غنيمى هلال : مختارات من الشعر الفارسى ص ٤١٠ – ٤١١ .

وعانى نسيب من الغربة الروحية ، فلا عجب أن تسمع للأسى فى شعره أنغاما شجية ، وأيضا فيه كل ألوان الحيرة والوحدة والوحشة والحنين ثم لا عجب فى أن يطرح الشاعر على ذلك كله وشاحا من الصوفية العميقة الصافية كالتى نطالعها على الأخص فى منظومته البديعة " على طريق إرم (١) " وهو يحس الحياة سيرا متواصلا لا راحة فيه ولا توقف ، ويحس الوجود طريقا غاب أوله فى غيبوبة الجهل وتوارى آخره فى غيبوبة المعرفة فلا ينقطع بحث قلبه إلى الأمام . (٢)

وهو يفسر هذا العالم الذى يشد إليه الرحال حين يتأمل فى هدوء قائلا :

لو حدق المرء فى البرايا ... لشام مالا ترى العيونْ
ماحولنا عالم خفى ... تدركه الروح فى السكونْ
كم مبصر لا يرى وأعمى ... يرى ويدرى الذى يكونْ (٣)

ويحس الشاعر أنه غريق فى لجة الوجود وليس من نجاة . فقلبه بلا شراع وسفينته من غير ربان ولكن مناره الإيمان ، وهو يقصد جزائر الخلود فهى الحلم والنجاة ومأوى التائه المجنون :

قلبى بلا شراعِ ... يطوف فى البحارْ
قد قارب التداعىِ ... من كثرة الأسفارْ
سفينة حقيره ... ليس لها ربانْ
فى ظلمات الحيرهْ ... منارها الايمانْ

* * *

طاف البحار يرجو ... جزائر الخلودْ
لعله .. ينجو ... من لجة الوجودْ (٤)

وإذا كان نسيب قد فقد ربانه فيما سبق فإنه وجده فى طريقه وربانه الذى عثر عليه هو نفسه يقول وهو يحدوه إلى طريق الخلود .

---

(١) د / خفاجى : قصة الأدب المهجرى ص ٣٥٦ .
(٢) السابق ص ٣٥٧ .
(٣) نسيب عريضه : الأرواح الحائرة ص ٨٣ .
(٤) من قصيدته على طريق " ارم

تقدمي ـــ ي وسيري إلى مكان بعيدْ
كل الدروب تؤدى إلى سبيل جديدْ
أنا وإياك ركب على طريق الخلودْ

– وفوزى المعلوف فى موقفه من الوجود لا يمثل موقفا فكريا محدد المعالم كموقف جبران ونعيمه . ولكن موقفه من الوجود موقف الرافض . الذى ينظر إلى الوجود بمنظار أسود . ويغلف هذه النظرة أمانٍ غير منظورة للخلاص منه فالفشل مكافأته فى كل مغامرة يخوضها وأمانية دائما تعرض عنه متجهمة . يقول:

عشت بين المنى يراود نفسى خُلب من طيوفها وعقامُ
أقتفيها وفى يدَىّ فؤادى ثم ألوى وفى يدىّ حطام !!

وربما كانت العثرات التى وقفت فى طريقه ، إضافة إلى مالديه من رصيد ثقافى وموهبة محلقة " لاطلاعه على الشعر الأسبانى ونمو تجاربه بالتأمل ومواقعة الحياة بالهم والألم والتحرى عن غايته من الوجود وغاية الوجود من ذاته " وَلّد لديه القصائد المتميزة الخاصة (١)

وموقفه السوداوى من الوجود يتصل بأكثر من سبب إلى ظروف حياته التى مرت به وعلى الرغم من أنه كان ثريا يتمتع بجاه الحسب ووفرة المال ، فلم تسعفه هذه المظاهر الزائفة .

يقول " محمد عبد الغنى حسن ، وتمثل لنا نظرة فوزى المعلوف المتشائمة فى الحياة صدق القول بأن المال لا يخلق سعادة ، ولا يصنع غبطة . فلقد اجتمع له الثراء والشباب وأوفيا له الكيل . ولكنهما لم يستطيعا أن يخلقا وتر السعادة فى عوده الحزين .(٢) – ومظاهر هذا الترف يصوره جورج صيدح فيقول عنه " فرع باسق من الدوحة المعلوفية أينع قبل الأوان ، وصوّح فى ريعان الربيع ، قدر له أن يمر بالحياة راكبا " بساط الريح " مستعجلا الوصول إلى الملأ الأعلى .. ترعرع وأينع بين ضفاف البردونى وفى أكناف الغوطة فى ظل والده العلامة عيسى اسكندر المعلوف ، ولكن الطموح غرربه فهجر الوادى الحالم . والجو الباسم الي أرض المداخن ، والمناجم وراء البحار عام ١٩٢١ ألف وتسعمائة وواحد وعشرين " (٣) وهو فى بساط

(١) إيليا حاوى : فوزى المعلوف ص ٧ .
(٢) محمد عبد الغنى حسن : الشعر العربى فى المهجر ص ٢١٧ .
(٣) جورج صيدح : أدبنا وأوبازنا ص ٤٥٨ .

الريح كما يقول " فرنسيسكو فيلاسباسا " صوت متوحد " متعدد ، متصابى ، روحانى ، مشع منعكس ، تتلاعم فيه المتناقضات بأعجوبة خارقة ، ورشاقة شعرية رائعة ، وتلاحم إلهى بليغ " (١)

والوجود فى نظر فوزى المعلوف وهْم فى وهْم ، ويحكى عنه شقيقه شفيق المعلوف فى كتابه الذكرى أنه فى (عام ١٩٢١ ألف وتسعمائة وواحد وعشرين) . كتب تحت أحد رسومه :

كل هذه الحياة وهم وهذا الـ ـرسم وهم وما أنا غير وهم
غير أن الرسوم تبقى طويلا وأنا أمحى بروحى وجسمى

– وفى ملحمته الطويلة على بساط الريح .. نتعرف على روحه الرافضة للوجود وقيمه وهى تتكون من أربعة عشر نشيدا تبلغ فى مجموعها مائتين وثمانية عشر بيتا " واختياره لموضوع الملحمة يقودنا إلى حقيقة نظرته للوجود . فكونه يطير من على الأرض ويحلق فى العوالم الغامضة ، ويسبح فى ما وراء الطبيعة يدلنا على حقيقة ذات قيمة وهى كرهه لهذا الوجود ، وثورته على ما فى الأرض من شرور وآثام " فالملحمة نفثات شاعر يحس أنه مقيد بجسمه على الأرض . ولكن روحه تسرح حرة فى الفضاء الطلق الرحيب بين الأرواح العلوية الخالدة البعيدة عما يعرفه العالم الأرضى من أطماع . (٢)

وفى النشيد الأول " يتجلى إحساس الشاعر بغربته عن دنيا الناس الحافلة بالمظالم المقيدة بمتطلبات تهيض أجنحة الشاعر وتغل خياله . فهو منذ البداية يعانى انقسامه النفسى الحاد بين الروح والجسد ، بين المثالية الصافية والواقع المادى الجاف . (٣)

ويصور الشاعر هذا الانقسام حين يتكلم عن مملكة الشاعر ومكانها الفضاء .

موطن الشاعر المحلق منذ الـ ـبدء لكن بروحه لا بجسمه
أنزلته فيه عروس قوافيـ ـه بعيدا عن الوجود وظلمه (٤)

---

(١) أنظر مقدمه : على بساط الريح .
(٢) عيسى الناعورى : أدب المهجر ص ٢٧١ .
(٣) د / أنس داود التجديد فى شعر المهجر ص ٤١٤ .
(٤) على بساط الريح ص ٦٢ .

وهذه الصورة التى تجعل الشاعر ينعم بمملكة الفضاء بكل مظاهر الملك من حاشية وموكب وعرش وتاج وطيلسان وصولجان " صورة رومانسية مستفادة من تراث الفكر ، منذ القدم ومن النزعة المسيحية التى لا تجد فى هذا العالم مقيل هناء بل شقاء وأنه بلد الغربة ووادى الدموع ، ولسنا نزعم أن الشاعر اقتفى خطى سواه بالتقليد وإنما هى مشاركة آلت إليه من الوجدان الإنسانى العام ، اتخذها لها أو أنها فاضت منه فيضا لقيامها فى طبعه وحلولها فى نفسه محل اليقين المبرم . ولقد امتطى الشاعر لذلك كله جناح الخيال والرؤيا . (١)

وفى النشيد الثانى يخاطب روح الشاعر فيقول مؤكدا رفضه للأرض الآثمة :

أنـــت مـــن عالـــم بعـيـد عـــن الأر ض يفيـــض الجـــلال عـــن جانبيـــه
هـــو فردوســـك السحيق فـلا الإثـــ ـــم ولا الشـــرّ يبلغـــان إليـــه (٢)

وفى النشيد الثالث يفند فوزى المعلوف موقفه من الوجود ويفسر ذاته من خلال التحامه بمظاهر الكون وقيمه وأهدافه . وملخص هذه النظرة هو أنه عبد لهذا الوجود لذا يمقته لأنه تواق إلى الحرية ومحروم منها . وبالرغم من أنه يعانى من العبودية لكن روحه حرة طليقة ، فالوجود أوله حياة وآخره موت وهو عبد الاثنين .

أنـــا عبـــد الحيـــاة والمـــوت أمشـــى مكرهـــا مـــن مهودهـــا لقبـــورهْ

والوجود يسير حسب شرائع هو عبدها :

عبـــد مـاضمـت الشرائـع مـن جـــو ريـخـــط الـقـــوى كل سـطـــورهْ

ولعل الشاعر يريد بالشرائع هنا – الشرائع البشرية . ولا أوافقه على كلمة " جور " إن أراد غير ذلك .

ويقوى من كونه يريد بها الشرائع البشرية أنه قال " يخط القوى كل سطوره وأداته اليراع الذى اتخذ من دم الضعيف حبرا ، ومن نواح المظلوم صريرا وهو عبد القضاء والمال والمدينة والإثم والجاه والشهرة والحب . وهو أعمى فى قبضة العبودية العمياء التى جعلته أسير المظاهر السابقة .

---

(١) إيليا حاوى : فوزى المعلوف ص ٦٠ .
(٢) فوزى المعلوف : على بساط الريح ص ٦٦ .

والشاعر يبدو منفعلا أمام وجوه الحياة ولكنه انفعال متمهل متوازن مع الفكر يبعث العمق والشمول حتى تصبح " الأبيات فى هذا النشيد " مجموعة من الأفكار المخضبة بالعاطفة فالمعاناة عبرت فى مجاز الفكر بدلا من الخيال ، وغلب عليها الوضوح بدلا من الإيحاء ونزعة إلافهام على نزعة الإلهام . وتسفر النزعة العقلية حيث يبدو الشاعر مفكرا بالتسلسل والسببية أكثر منه معانيا بالرؤيا . (١)

وغلبة التأمل الفكرى . أدت إلى طغيان أسلوب المقابلة والبرهان فبدت – القصيدة من بدايتها إلى نهايتها كالقضية الرياضية . فالبيتان الأولان هما المسألة وقد دل عليها بعبودية الحياة والموت والشرائع والقضاء والشهرة والحب – أما النتيجة فهى أن الروح وحدها حرة .

ومن هنا اتسمت القصيدة بوحدة عضوية وتدرج وتسلسل فتمت دون تكلف أو – استطراد . وربما مالت إلى الأسلوب النثرى الصرف فى التعداد ..(٢)

وينقد د / أبو شادى موقف فوزى السلبى من الوجود . كذلك ينقده د/ أنس داود لأنه موقف غير محدد بخط فلسفى معين . ولكن الأستاذ / عيسى الناعورى يقول عن هذا النشيد " عبد وحره " وقد رسم الشاعر بهذا التصوير لوحة من أصدق اللوحات الفنية الموشاة بالتأمل العميق فى موكب هذا الوجود السائر دائما والناس مصفدون بأغلاله لا يستطيعون فكاكا . ثم يقول عن النشيد " إنه من أروع الشعر الذى يحملنا على التفكير العميق لأن كلا منا يرى فيه صورة نفسه وصورة أحاسيسه . (٣)

و د / أنس داود يرى أن هذا الموقف جاء " على نحو لا مبرر له من تفهم للوجود وأسراره أو تعمق للإنسان وطبيعته ولكنه تنفيس عن ألم ذاتى مكبوت بطريقة تتسم بالمبالغة ولا تتفق مع القضايا الحياتية والمصيرية التى طرقها فوزى فى مطولته " وهو يعمم عبودية الانسان دون أن يترك لإرادته وعقله ثقبا للإختيار وهى نظرة بعيدة عن الموضوعية مغرقة فى التشاؤم والسوداوية . (٤)

ويرى " إيليا حاوى " أن النشيد الثالث " عبد وحرة " من أسمى أناشيد القصيدة وأكثرها

---

(١) إيليا حاوى . فوزى المعلوف ص ٧٢ .
(٢) إيليا حاوى : فوزى المعلوف ص ٧٣ .
(٣) عيسى الناعورى : أدب المهجر ص ٢٧٤ .
(٤) د / أنس داود . التجديد فى شعر المهجر ص ٤٣١ .

شجوا ودنوا إلى النفس حيث يستهل الشاعر بفكرة عامة يقارن فيها بين الجسد والروح المقيمة فيه ، بين عبودية الجسد وحرية الروح وعذابه فى ما بينهما . وأثر ذلك يبين هذه الفكرة ويفصلها ، ملما بشتى نواحى الحياة على ضوئها وبالنسبة إليها . (١)

وأرى أن فوزى المعلوف صادق فى إحساسه كل الصدق فهو يحكى عن الواقع المرير الذى اتسمت به النفس البشرية حين تتعرى من كل قناع وهذا لا يسلب الإنسان التيار الإيجابى وعوامل القوة النفسية التى بها يجابه هذا التسلط الواقع عليه من كل ماحوله وهذا ما افتقده فوزى فقد استسلم لسيطرة النوازع الخفية فتخيل أن الوجود كله هكذا ومن هنا صب نقمته على الوجود كله فى النشيد السابع حيث يصور فزع النجوم ومهاجمتها للإنسان الظالم الباغى .

هـــو مخـلـــوق عـالـــم اسمه الأر ... ض يغطـى الشقـاء كـــل بطاحِـــهْ
عـــالـــم ما شعـــاره غيـــر أن الـــ ... ـــحق لـلقـوة التـى فـــى سلاحـــــه
لا تـخـافـى منـــه وخليـــه يعلـــو ... فقريبـــا يهـــوى صريـــع كـفـاحـــه

ويتابع وصفه للإنسان فى النشيد العاشر قائلا عنه :

هـــو يحيـــا لـلشـــر فالشـــر يحيـــا ... أبـــدا حيـث حـل شـــؤم ركابِـــهْ

– وفى هذا النشيد يحس فوزى بالبؤس " الوجودى المخيم عليه فى كتاب القدر وفى شروط مصيره البشرى . فالإنسان ليس سوى حفنة من تراب ونطفة هزيلة من طين وماء . نفخة أحيته ونفخة تميته ، وفى النهاية يعود إلى رحم الأرض التى منها أخذ وقد بدا الإنسان فى ذلك كله قميئا مدحورا ، يحسب أن الوجود أوجد فى سبيله فيما هو يدب على متنه بالفساد والفتن والموت . (٢)

وفى النشيد الحادى عشر يقول فوزى عن الإنسان على لسان روح توشوش الأرواح وتسر إليهم بحديث النقمة على هذا الشرير :

أُعْطِـى النطـق والحجـا ميزة تَـفْـ ... ـرقهُ فـــى الوجـود عـــن حيوانِـــهْ
فـــاذا بالأذى ولـيـــد حجـــاه ... واذا بـالشـــرور نَـبْـــت لسـانِـــه

(١) إيليا حاوى : فوزى المعلوف ص ٦٧ .
(٢) إيليا حاوى فوزى معلوف ص ٩٢ .

وفى تفسيرهذه النظرة التشاؤمية القاتمة إلى الوجود يقول الناعورى " ونحن نرى أن هذا التشاؤم المرالعنيف عند فوزى المعلوف وهو فى ميعة العمر وفى عنفوان العافية والجمال والغنى إنما مصدره التأمل الطويل الذى لا إرادة للشاعر فيه ولا اختيار فى الموت وفى آلام الحياة (١) .

لكن د / أنس داود يرى العكس فى تفسيره لهذه الظاهرة . فالناعورى يرى أن - مصدرها التأمل لكن أنس يقول " وحسبنا أنْ نقول إنها لم تكن عن رؤية وتأمل ولم تصدر عن فلسفة تحلل الوجود وتختبر المقدمات ولكنها كانت غضبات شاعر يحمل طعنة غدر من حبيبته أصابته فى الصميم من كبرياء شبابه ورهافة إحساسه فأظلم الوجود بين عينيه فقدمه لنا مغلغا بجراح فؤاده ملونا بألوان آلامه . (٢)

وقبل أن أدلى برأيى فى هذه القضية أود أن أوضح نقطة مهمة وهى : أن فوزى المعلوف إضافة إلى ظروفه القاسية كان متأثرا بأبى العلاء المعرى . بأفكاره وفلسفته فالمتأمل لأفكار فوزى يلمح اتفاقا فى نظريتهما وربما نتج هذا الاتفاق من تأثر فوزى بفيلسوف المعرة وحكيمها وهذا هو الأرجح ، أو ربما كانت الظروف النفسية متفقة وتدور فى أفق واحد وربما تكون سرقة شعرية غير مباشرة . ففوزى يرى أن النبات ليس إلا عصير أجسام الموتى وهى نظره فسرها أبو العلاء قديما حين قال :

خفف الوطء ما أظن أديم الأرض إلا من هذه الأجساد

وقال فوزى : كل النبات الذى فى الأرض من زهره إلى لبلابهْ !!!

ليس إلا عصير أجسام من ما توا فزانوا الثرى بأجمل مابهْ

وهو متأثر أيضا فى هذا التفسير للوجود المادى بعمر الخيام الذى يقول :

فامش الهوينى إن هذا الثرى من أعين ساحرة إلاحورارْ

والنص الأصلى هو كما ترجمه د / محمد غنيمى هلال :

كل ذرة كانت على وجه الغبراء
حسناء مشرقة المحيا زهراء الجبين
فانفض الغبار عن وجنة الفاتنة فى حياء
فان ذاك الغبار كان أيضا وجنة ونؤابة حسناء (٣)

(١) عيسى الناعورى : أدب المهجر ص ٤٦٤ .
(٢) أنس داود التجديد فى شعر المهجر ص ٤٢٢ .
(٣) د / محمد غنيمى هلال : مختارات من الشعر الفارسى ص ١٣٩ .

والواقع أن بين المعرى وفوزى المعلوف تجاوبا صادقا فى نظرتهما إلى الحياة وفى آرائهما فى الموت والخلود ، فلقد انطوى المعرى على نفسه يتأمل الدنيا من خلال عماه فبدا له أن شرها يطغى على خيرها فعافها وهام بحر بها .

وأطال فوزى فيها ببصره وبصيرته معا ، فلم يتح له تأمله إلا كرهها ومقتها فضم قلمه إلى شيخ المعرة فى محاربه الحياة والناس . (١)

ويقر بهذا التأثر شقيق الشاعر وهو رياض المعلوف حين وجهت اليه سؤالا فى رساله خاصه عن المؤثرات التى أثرت فى أدبهم وبخاصة أدب فوزى المعلوف . فقال : فوزى تأثر بالمعرى وعمر بن أبى ربيعه ومن الفرنجة بشاتوبريان " الفرنسى "وروايته" ابن حامد " و سقوط غرناطه تلاقى فيها مع ابن سراج القرطبى ومع شاتوبريان ، وألبير سامان ، ولا مرتين . (٢)

وهذا الاتجاه والتأثر يدلنا على أن فوزى تضافرت عوامل كثيرة فى تكوين موقفه الرافض للوجود .

لكننى كما قلت سابقا أعتقد أنه لم يمتلك قوة الإرادة التى تسمو على الضعف البشرى فاستسلم لدواعى الألم وأسباب الشقاء .

وهذا الإحساس جعله يشعر أنه يعيش على الأرض بالرغم منه وذلك حين تظهر روح الشاعر فتطوقه بكل عطف وتقف بين الأرواح الصاخبة الثائرة لتدفع عنه ما ترميه به هذه الأرواح من جارح القول ، ولتخلصه من غضب العالم الفخور بشمسه ، وتعتذر عنه بقولها :

هـو بالرغـم عنـه مـن عـالـم الأر ... ض تزيًا بشكـل أبـنـاء جنـسـهْ
سكـن الأرض مرغمـا وهـو لو خُـيرّ ... ما اختـار غـير ظلـمـة رمسِـهْ

وفى بساط الريح لم يخرج فوزى عن حكاية ألمه وتصوير الارتطام بين مثاليته الروحية والفساد الذى استشرى بمجتمعه وبين طموحه إلى الكمال والقيود الأرضية التى تصدم هذا الطموح مما دعاه إلى وصم الانسان بالعبودية وحمل على المجتمع الإنسانى بأبلغ الهجاء فهو لم ينطلق إلى القضايا الكونية الكبرى . قضايا الوجود والعدم . المبدأ – والمصير .

---

(١) الناعورى : أدب المهجر ص ٢٧٨ .
(٢) من رسالة له إلى فى ١٤ / ١٢ / ١٩٧٧ م .

وفى "ملحمة" شعلة العذاب " يوضح أن الابتسام والبكاء لا جدوى منهما فالمولود يبكى والراحل يتحسر وميلاده مقترن بالألم ، وموته أكثر ألما . يقول :

ما وليد الآلام غير أسير ... والردى وحده يحرر أسرهْ
ضاقت الأرض فى الحياة عليه ... وكفته فى الموت أضيق حفرهْ
إن من جاء مهده مكرها يمـ ... ـضى إلى لحده مكرها وهْو مُكْرَهْ (١)

– وهو يؤمن بالقدرية المطلقة . فالإنسان يأتى . كما عبر فى أبياته السابقة مكرها ويرحل وهو مكره كذلك . ولذلك ينظر إلى الموت نظرة المخلص من العذاب والألم والتشاؤم هما الصبغة التى تلون شعور فوزى، مهما اختلفت الصيغ والمواقف وتغيرت الظروف والأماكن وتنوع الإحساس فالوجود عنده غارق فى دموعه فهو أتى بغير اختياره وتمنى لو لم يجىء إلى هذا الكون الشقى .

ومرة أخرى تطل رأس أبى العلاء بما تحمل من أفكار غامضة غائمة ضبابية من عينى فوزى المعلوف لنقرأ من خلال صمتها المفصح عن آلاف الأفكار إنه متأثر بقول أبى العلاء :

هـذا جنـاه أبـى على وما جنيتُ على أحَدْ

وروحه تأخذ الطابع الرومنسى حين تنوح على كل شىء " فالرومانسيون هم الفاشلون باختيار منهم ، الناعون ، النائحون بلا جنازة ، حاملو الأعلام السود ولسان حالهم يقول " خير للإنسان لو لم يولد " .

وهكذا فالبسمة تطوى والبهجة تخبو ، فيما ينتشر الدمع وتلتمع الجراح فالرومانسى يقيم لذاته مناحة ، وهو حى وينظم المراثى الذاتية وتراه كأرميا . مقيما على أطلال الحياة ، ملتطما ، معولا ، وربما تغالى فى ذلك ، فرثا نفسه وبكى مصيره منذ ولادته .(٢) وهو يترجم المعانى السابقة قائلا عن الطفل ساعة مولده :

ذرفت عينه لدى رؤية النو ... ر دموعا جرت بغير اختيارهْ
نطقت عنه وهى عى فكانت ... أول المفصحات عن أفكاره
هكذا الزهر يسكب الدمع عند الـ ... ـفجر مستقبلا سنى أنواره (٣)

---

(١) فوزى المعلوف : شعله العذاب : بين المهد واللحد ص ٢ .
(٢) إيليا حاوى : فوزى المعلوف ص ٥٤ .
(٣) فوزى المعلوف : شعلة العذاب : يوم مولدى ص ٣ .

وإذا كان سائر الرومانسيين يحنون إلى الطفولة حنينا هالعا إلى زمن جميل كانوا يحيون فيه حياتهم . بدلا من أن يتفكروا بها . فإن فوزى يبدو أشد وعيا لفاجعتها لأنها تمثل البراءة التى سيفترسها الغدر ، والطهر الذى سوف تدنسه أدران الحياة والاستلام الذى سينكره العذاب ، والجمال الذى سيحيله القبح والحياة التى سيبتلعهما الموت . (١)

ونلاحظ أن التساؤلات القوية التى ناقش من خلالها لغز الوجود ، وقضية " المبدأ والمصير " لم تتطور إلى تساؤلات أعمق ولم تعمم إلى مناقشة قضايا أخرى فوقفت عند حدود التساؤل . ثم غرق الشاعر فى آلامه النفسية يصورها من زوايا متعددة وهذا يعطينا دليلا أكيدا على أن فوزى كان موقفه الأول والأخير من الوجود هو الرفض والموقف العدائى لكل ما فى الوجود من مظاهر والإحساس بعبثية الحياة وحتمية العدم ، واحتجاب الحقيقة .

كلمة أخيرة :

مما تقدم أستطيع أن أقول إن موقف المهجريين من الوجود يتمثل فى الحقائق الآتية :

أولا : الإيمان بوحدانية الوجود وهو ما نجده عند جبران ونعيمه .

ثانيا : الإيمان بقيمة الإنسان وأهمية دوره فى الوجود إلى حد بلغ التطرف عند نعيمه فنادى بفكرة " الإنسان الاله " .

ثالثا : فلسفة تناسخ الأرواح أخذت من أدبهم قسطا كبيرا ونادى نعيمه بمبدأ الحيوات المتعددة للشخص الواحد . وأطلق عليه . مذهب تجدد الشخصية .

رابعا : لم ينصب التأمل فى الوجود عندهم على أصل الكون ومتى وجد ؟ مثلما تعرض الفلاسفة لهذه القضية واختلفوا حولها .

وردوا أصل العالم إلى الماء أو النار أو الهواء أو العدد،أو الذرة أو إلى الوجود نفسه .

وإنما تأملوا فى مظاهر الوجود الكونى وحقيقة الوجود الإنسانى وبحثوا عن حقيقة سعادة الإنسان وأدهشهم تناقض القيم التى تحوطه من كل جانب .

خامسا: اتسم موقف البعض منهم بالعداء للوجود . وصب شواظ غضبه عليه وخير شاهد على ذلك "

(١) إيليا حاوى . فوزى المعلوف ص ٥٧ .

بساط الريح وشعله العذاب " لفوزى المعلوف .

لكن فى الأغلب كان أدبهم . إيمانا بالحضارة . والصبر على المكاره والإقدام بالعزيمة الصادقة على الكوارث والأخطار .

سادسا : التساؤلات والحيرة والشك الدائم فى كل شىء .. ولا شك أن الشك كان محور تفكير المهجريين عند نظرتهم للوجود . وهذه الصفة كانت مثار هجوم عليهم ونقد لهم ولأدبهم . وفى مقدمة هؤلاء المهاجمين الشاعر عزيز أباظه يقول :

والشك طابع شعر المهجر المميز له ، فنسيب عريضه . الشاعر الذى انسرح فى مرآة الحياة وأطال التأمل فى أسرار الكون ينوء ذهنه بالريب فى الحياة وما بعد الحياة فيقول :

شربْتُ كأسى أمام نفسى ... وقلت يانفس ما المرامْ
حياة شك وموت شك ... ؟فلنغمر الشك بالمدامْ

ويقول : ومن المعلوم فى أدب الغرب أن الشك لون من ألوان الفلسفة الحديثة حتى إن ديكارت وضع له مذهبا محدد الأصول ولعل انتفاع أدباء المهجر بالأدب الأوروبى أورثهم هذه النزعة فشكوا فى كل شىء ولم يهتدوا إلى شىء . (١)

ولكن العقاد يدافع عن هذه الظاهرة ويرد على عزيز أباظة مفسرا ظهورها عندهم نتيجة للظروف الحياتية والثقافية وتقلبات حياتهم يقول " إن هذا التساؤل طبيعى فى مثل نشأتهم وثقافتهم وأطوارهم ، وتتقلبات حياتهم ، وقد انتهوا جميعا من تساؤلاتهم إلى سماحة الدين ونبذ العصبية الذميمة . والميتافيز يقاليست باب الحكمة الوحيد الذى طرقه الشعراء المهجريون . فإنهم نظموا حكمة الحياة فاجتمعت لهم من هذه الحكمة ذخيرة لا نظير لها فى بيئة أخرى من بيئات الشعر العربى الحديث .

(١) أنظر الشعر العربى فى المهجر لمحمد عبد الغنى حسن " المقدمة لعزيز أباظة " ص ١٤ – ١٥ .